د. نديم عطا إلياس

سَيقهر الماءُ صُمَّ الحجر

«آناماري شِمل» وجائزة السلام

كتاب الرائد ١٤

الدار الإسلامية للإعلام
بون ـ ألمانيا

بسم الله الرحمن الرحيم

د. نديم عطا إلياس

سيقهر الماء صمّ الحجر

آنا ماري شِمل وجائزة السلام

كتاب الرائد
- ١٤ -

الطبعة الأولى

شوال ١٤١٦هـ للهجرة /آذار - مارس ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

للـــدار الإســلامية للإعـلام

IID. e.V.
P.O.Box: 100810
D-52008 Aachen, Germany

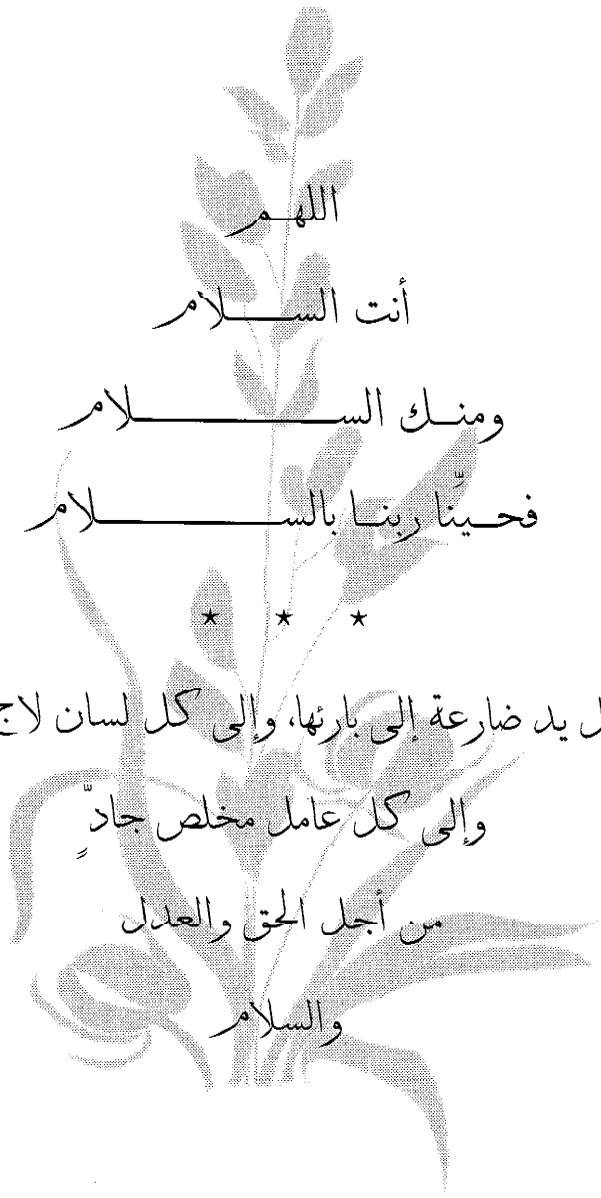

اللهم

أنت السـلام

ومنـك السـلام

فحـيّنا ربنـا بالسـلام

* * *

إلى كل يد ضارعة إلى بارئها، وإلى كل لسان لاجٍّ بالدعاء

وإلى كل عامل مخلص جادٍّ

من أجل الحق والعدل

والسلام

بسمه تعالى

الدكتور نديم الياس ، ادام الله بقاءه ،

بعد السلام وانا اشكرك لمكتوبك الحزين الذى تناولته بيد السرور
واتمنى لك واخوانك وكل من يحب الخير عيدًا مباركًا
وكل ما تريد من الخير ، وفقك الله تعالى فى كل امورك !

مع أعطر سلاماتى
وخير تمنياتى
الفقيرة الى رحمة ربها

الفهـرس

تحية خطية ٧

مقدمة ٩

حرب حول جائزة السلام ١٧

السيرة العلمية ٢٩

قائمة الجوائز والتكريم ٣١

«ألق كلمة تكريمك.. يا فخامة الرئيس» ٣٣
خطاب مفتوح لرئيس الجمهورية من كريستان هوفمان

شهادة التكريم ٣٧

«هي مهَّدت لنا الطريق للإسلام» ٣٩
كلمة التكريم للرئيس رومان هرتسوج

«سيقهر الماء صمّ الحجر» ٥٣
كلمة الشكر لآنا ماري شمل
جائزة السلام.. الجولة الأخيرة؟ ٦٩
من قائمة الكتب ٨٣
قائمة الحائزين على جائزة السلام للكتاب الألماني ٨٩
الكاتب في سطور ٩٣
الفهرس ٩٥

مقدمة

بقلم: الدكتور صلاح الدين النكدلي

ولدت علاقة الإسلام بأوروبا منذ الأيام الأولى لبعثة خاتم النبيين محمد بن عبد الله، عليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام. فقد قررت نصوص القرآن بوضوح:

* أن محمداً هو خاتم موكب رسل الله الكرام.. عليهم أفضل صلاة وسلام.
* وأن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام بشر رسول.. وأن مثله عند الله كمثل آدم خلقه الله تعالى من تراب ثم قال له: كُنْ.. فكان خلقه معجزة.
* وأن الله تعالى الخالق البارىء المصور ﴿**لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحداً**﴾(الإخلاص: ٣-٤) وأنه عز وجل ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ (الشورى: ١١)

وأكدت نصوص القرآن والسنة أن أهل الكتاب «اليهود والنصارى» قد ابتعدوا عن التعاليم التي بعث الله بها موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.. ومع ذلك فقد خص الإسلام أهل الكتاب بمعاملة خاصة، وحض المسلمين على التحاور معهم بشفافية واحترام.. ونكتفي في هذا المقام بذكر آيتين توضحان هذه الحقيقة:

١ - يقول الله تعالى: ﴿**اليوم أُحِلَّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان..**﴾ (المائدة: ٥)

٢ - ويقول عز وجل: ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون**﴾ (العنكبوت: ٤٦)

وقررت تعاليم الإسلام مباديء «**التعددية الثقافية**» في إطار أمة ودولة، بموجبها عاش أهل الكتاب في دولة الإسلام آمنين. ومارسوا شعائرهم التعبدية، ونظموا شؤونهم الخاصة في حماية الدولة وتوجيهات القرآن والسنة، ولم يطالبهم الإسلام إلا باحترام النظام العام، والتزام أحكام القانون الذي يجب أن يلتزم به جميع من يعيش في دولة النظام.

رفضت أوروبا - التي كانت تعتبر نفسها حامية النصرانية - ما جاء به الإسلام، ورأت أن عليها النهوض بواجب التصدي لانتشار الظاهرة الإسلامية، فكان ما هو مسطور في صحائف التاريخ.. وما هو غير مسطور.. من المواجهات الفكرية والسياسية والعسكرية.. التي دامت قروناً مخلفة في

أعماق الطرفين ما نسميه بـ «**الذاكرة التاريخية**» التي توحي بمواقف الرفض والشك والكراهية.

* * *

ودار الزمان دورته.. وحلت بالمسلمين سُنَّةُ من سبقهم ﴿**فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون**﴾ (الحديد: ١٦) ﴿**فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا**﴾ (مريم: ٥٩). فلما استحكم الغيُّ والفسق عن أمر الله من المسلمين.. سرى فيهم الضعف فقتل روح الأمة شيئاً فشيئاً وهدم بنيانها جزءاً فجزءاً.. فغادرتها دواعي المجد أجمعُها!!

وتزامن تراكم أسباب الضعف في عقل وحياة المسلمين.. مع تراكم عوامل القوة المادية في شعوب القارة الأوروبية.. التي كانت تمر بمرحلة مخاض رهيبة.. فلما وضعت مولودها الجديد، قرر حين بلغ أشده فصل الدين «الكنيسة» عن الحياة، ورفع شعار «دَعْ ما لِقيصر لقيصر وما لله لله». وانبجست في أوروبا أفكار وفلسفات أجمعت على تحجيم دور الدين في الحياة، واختلفت في حدود وجوده الاجتماعي وصلاحياته.

وجدت أوروبا العلمانية الصناعية نفسها أمام مشكلات.. فرأت حكوماتها أن حلها منوط بوضع يدها على مصادر المواد الخام، وبضمان أسواق تشتري ما تنتجه مصانعها.. فدفعت بجيوشها في البر والبحر، وأسفر ذلك عن بروز «**ظاهرة الاستعمار**» التي تذكرها الشعوب الفقيرة والمستضعفة بمرارة وألم لا حدود لهما.. لأن آثارها الاستغلالية النهبية عاشت مع الأجيال المتتابعة إلى يومنا هذا!!.

وخضعت معظم أقطار العالم الإسلامي.. المنهار من داخله.. لسلطان أوروبا العسكري.. وفرضت الدول الاستعمارية على المسلمين «الفكرة العلمانية»، وأوجدت أرضاعاً مغايرة لهويتهم الثقافية وشخصيتهم الحضارية، وربطت أقطارهم بعجلة الاقتصاد الأوروبي – الغربي، وجزَّأت بلادهم، وزرعت في قلبها «فلسطين» دولة غريبة دخيلة عليهم.. وأمدتها بكل أسباب القوة والغلبة، وتعهدت ببقائها!

وتحركت شعوب العالم الإسلامي مطالبة برحيل جيوش الاستعمار وحين تحررت بلاد إسلامية وجدت نفسها محطمة الإمكانات، ومُقيدة بسلاسل الغزو الثقافي داخلياً وخارجياً.. وكانت الغزوة الثقافية أحد العوامل التي أيقظت تيار التجديد الإسلامي المعاصر.. الذي حلل أسباب ضعف المسلمين فوجدها تجتمع في أمرين:

١ – البعد عن تعاليم الإسلام فهماً وسلوكاً ونظاماً.

٢ – فرض الفكرة الغربية «العلمانية» في عالم الفكر والاجتماع والتشريع، وإلزام المسلمين بالتبعية السياسية والاقتصادية والأمنية.

هبَّ دعاة التجديد الإسلامي يرومون تصحيح مناهج الفهم، وتقويم معايير السلوك، وضبط الحياة بتعاليم الإسلام الرحيمة الكريمة.. فوجدوا أنفسهم أمام:

* **عقبات داخلية** تمثلت في أنظمة الحكم العلمانية – وعامتها استبدادية هرقلية – وفي التيار العلماني.
* **وعقبات خارجية** يرعاها ساسة وأصحاب نفوذ وقرارفي الغرب.. الذي يملك – في هذه المراحل التاريخية – معظم خيوط القوة والضغط والتأثير والتحوير!!.

وكان طبيعياً.. في أجواء المواجهة بين الفكرة الإسلامية و«الفكرة الغربية».. أن تتعدد قراءات الواقع، وأن تختلف الرؤى داخل صف المسلمين، وفي صفوف الغربيين، وأن تتباين تبعاً لذلك المواقف والتصرفات..

* * *

وكان للحركة الاستشراقية دور كبير في صياغة العقليات والتأثير على السلوك والتصرفات.. ولقد رصد المسلمون دوائر الاستشراق، وميزوا بين فئتين:

١ - **فئة المستشرقين المتحاملين**: وهم الذين انطلقوا من أحكام مسبقة قائمة على موقف معادٍ.. ويدخل في هؤلاء المستشرقون الذين ولجوا إلى ميدان الاستشراق بدوافع دينية، وأهداف تنصيرية، وبواعث استعمارية، ومآرب سياسية اقتصادية.. وكان واضحاً أن هؤلاء يسعون إلى أهداف يمكن ذكرها في عناوين جامعة:

- بث الوهن والارتباك في فكر المسلمين .. وذلك بالتشكيك بعقيدة الإسلام وقيمه وتشريعاته.. وبالغمز من التراث الإسلامي.
- تهيئة المسلمين لقبول الفكرة الغربية وإفرازاتها.
- تكوين ثقافة معادية للإسلام وللحضارة الإسلامية لدى أصحاب القرار الذين يحتكون بالمسلمين، ويحتاجون إلى معلومات ومراجع تُعرفهم بالإسلام وبالحركات الإسلامية قديمها وجديدها.. وبناء موقف معاد ورافض للإسلام في نفوس عامة أبناء الغرب.
- تزويد أصحاب القرار والمصالح بالمعلومات التي تعرفهم بالشعوب المسلمة، وبطرائق التعامل التي تحقق المصالح الغربية.

٢ - فئة المستشرقين المخلصين: وهم الذين بذلوا وسعهم في التعرف إلى الإسلام كما هو، وإلى فهم المسلمين وتقدير نظريتهم إلى الإنسان والكون والحياة.. وهؤلاء أصابوا في أمور، وأخطأوا في أخرى، إلا أن خطأهم لا يرجع إلى البواعث، وإنما إلى ضعف وسائل المعرفة، أو رواسب تحليل البيئة، أو عوامل تكوين الشخصية.. ومنها القدرة على الربط بين أجزاء المعرفة.

ولقد قرر علماؤنا - نحن معشر المسلمين - حقيقة تضبط الأخذ عن أهل العلم وترك اجتهاداتهم، وهي: «ليس أحدٌ إلا ويؤخذ من رأيه ويترك، ما خلا النبي ﷺ». فإذا كان المسلمون يرون هذا في حق علمائهم، الذين يؤمنون بالإسلام وعاشوا مع نصوصه عن علم يؤهلهم لفهم مقبول، فمن باب أولى أن يحتاط المسلم عند الأخذ عن المستشرقين.. لأن القضية لا تتعلق بالصدق وإنما بالصواب.. الذي ربما أبعد عنه أمران:

الأول: عدم الوقوف على جميع المعلومات في مسألة من المسائل.

الثاني: نسبية الربط بين المعلومات، أو نسبية الاستنباط، بفعل مؤثرات ترجع إلى الملكات وتأثيرات النشأة والبيئة.

* * *

وينطبق ما قلناه في مجال المواقف العلمية للمستشرقين على تصريحات ومواقف رجال السياسة من أهل الغرب، الذين يلحون على التسامح والتفاهم والحوار بين الثقافات والحضارات، فهؤلاء ينطلقون من الاعتراف بالجوانب التي يرونها حسنة في حضارات الآخرين، فإذا جاؤوا على ذكر المسائل التي لا يرونها - بموازينهم - صواباً.. إذا بهم يهجمون على المخالفين مسفهين جوانب حضارتهم.. من غير أن يتركوا لنسبية الفهم مجالاً للحوار والبحث

عن الأفضل والأقوم، وهذا باب من أبواب القهر السياسي.. أين هذا من منهج القرآن مع المخالفين الذين حكم بخطئهم من أهل الكتاب؟ وذلك في قوله تعالى:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (آل عمران: ٦٤)

ويظهر من كلام عامة السياسيين المعتدلين من أهل الغرب، أنهم ما يزالون في عدد من القضايا الكبرى أسرى «الذاكرة التاريخية» و«المذهب الفكري المعاصر» و«المصالح الحيوية لبلدانهم» سواء شعروا بهذه المؤثرات أم لا. إنهم – على سبيل المثال – يهجمون على ما يسمونه «الإسلام السياسي» ويرمونه بأشنع مصطلحات التنفير والمحاصرة والضغط زاعمين أن الدولة الدينية تسحق الثقافات الأخرى، ولا تعترف بالتعددية الحزبية، ولا تبيح المعارضة السياسية!!. وهذا يتناقض مع حقوق الإنسان الأساسية!!.

* * *

لقد قدم المستشرقون المنصفون خدمات جليلة في التعريف بعدد من حقائق الإسلام، و رسخوا بطريقتهم أخلاقيةً منفتحة منصفة.. سواء أصابوا أم أخطأوا.. ففي عُرفنا: «**ليس من طلب الحق فأخطأه.. كمن طلب الباطل فأدركه**». فهؤلاء يستحقون الثناء والتقُّهم لما يصدر عنهم من قصور في البحث.

ونحسب أن عالمة الاستشراق آنا ماري شمل[1] من الذين عشقوا الحقيقة،

---

(١) Prof. Dr. Annemarie Schimmel

وبذلوا قصارى جهدهم في التعرف إلى الصواب، وكان لها دور مشكور منذ نعومة أظافرها في تقريب عدد من المسائل الإسلامية إلى الخاصة والعامة، وفي دعوة المثقفين والسياسيين في الغرب إلى امتحان معلوماتهم عن الإسلام، وإلى صون عقولهم من الأخذ عن جاهل أو مغرض.

هذا، ويسر الدار الإسلامية للإعلام أن ترحب مع الدكتور نديم عطا إلياس بالمبادرات العلمية المنصفة، وبالمواقف السياسية التي تتسم بالدعوة إلى التفاهم بين الثقافات، ونأمل أن نرى في قابل الأيام انتصاراً لفكرة الحوار والتسامح، واندحاراً لفكرة الانغلاق على الذات والتعصب.. ونتطلع إلى ترجمة صادقة للمبادئ الراقية.. وإلى أن يحل السلام محل الخصام.. والاحترام مكان الاستعلاء والازدراء.. والتعاون على ما فيه خير البشر بدلاً من التقاطع والتدابر والسعي في إهلاك الحرث والنسل.

وندعو المسلمين خاصة إلى ترجمة صادقة شاملة لقول الله عز وجل: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (الأنبياء: ١٠٧)

حرب حول جائزة السلام

وقفت في منتصف عام ١٩٩٥ في محفل في باريس ضم عشرات من السياسيين والمفكرين الفرنسيين ورجال الدين، وسألت الحاضرين: من منا يا ترى لا يعرف سلمان رشدي وتسليمة نسرين؟ فلم يجب بطبيعة الحال أحد من الحاضرين. ثم كررت سائلاً: مَنْ مِنَ الحاضرين يعرف الأستاذة آنا ماري شِمِل؟ فلم أحظ برد من أحد. ثم تساءلت مستغرباً لم يا ترى تصر أوروبا على صنع رموز الخلاف والتفرقة بين الغرب والإسلام، وتسعى إلى إبرازها وتعظيمها وتكريمها، وتجهل أو تتجاهل في الوقت نفسه رموز التسامح الإنساني والتقريب الحضاري مثل شِمِل، أو تسعى إلى تطويقها وإخراجها من أوروبا مثل صنيعها مع الدكتور العربي الكشاط؟[١]

لم تكد تمر أيام على كلماتي هذه إلا وقد تصدَّر اسم آنا ماري شِمِل المرشحة لجائزة السلام[٢] صفحات الصحف الألمانية والعالمية، ليس تكريماً وتقديراً لشخصية هذه العالمة الفذة التي قضت أكثر من نصف قرن في خدمة الاستشراق والعلوم الإسلامية، وفي رعاية أدب الشعوب الشرقية وفنونها، وفي ترجمة شعرها وتراثها، بل اكتظت وسائل الإعلام بأخبار حرب همجية جائرة من أجل تشويه صورتها الإنسانية والنيل من كرامتها العلمية وزعزعة الثقة في استحقاقها لجائزة السلام.

---

(١) انظر مقال (تسليمة نسرين والعربي الكشاط) للأستاذ عصام العطار. الرائد «١٦٨».

(٢) جائزة السلام يقدمها سنوياً «إتحاد الناشرين الألمان» المعروف أيضاً باسم «رابطة الكتاب الألماني» أو «بورصة تجارة الكتاب الألماني» "Börsenverein des Deutschen Buchhandels"

الشهيرة المجهولة

كانت آنا ماري شمل مجهولة في بعض الأوساط ولكنها كانت ولا تزال علماً في ميدانها، يشهد لها أكثر من مائة كتاب بدأت بتأليفها في الثامنة عشرة من عمرها في مبادئ الإسلام وأسسه، وفي مختارات من القرآن والحديث، وفي مدارس التصوف واتجاهاته، وفي الزهد والأخلاق الإسلامية بالإضافة إلى ترجمات روائع الأدب والشعر، ولا تزال عميدة الاستشراق التي بلغت الثالثة والسبعين تترجم من ست لغات شرقية، وتكتب وتحاضر بالألمانية والعربية والأردية والفارسية والتركية، بالإضافة إلى بقية الاثنتي عشرة لغة التي تجيدها. ولا تزال "La grande dame" كما يطلق عليها تجوب ردهات الجامعات في بون وبرلين وماربورج وهارفارد وإسلام أباد وغيرها. ولقد اعترفت الأوساط العلمية بفضلها في التقريب بين الشعوب والحضارات، وفي التعريف بالقيم الإنسانية والحضارية في الإسلام، فكانت أول من مُنح جائزة فردرش ركارت[1] عام ١٩٦٥، وحصلت على وسام القائد الأعظم في الباكستان عام ١٩٦٦، والدكتوراة الفخرية من جامعة السند عام ١٩٧٤، وميدالية همر برجستال[2] الذهبية عام ١٩٧٤، وجائزة يوهان هاينرش فوس [3]من الأكاديمية الألمانية للغة والشعر عام ١٩٨٠، وشغلت لمدة عشر سنوات، اعتباراً من عام ١٩٨٠، منصب رئاسة الجمعية الدولية لتاريخ الأديان ، وعضوية الأكاديمية الهولندية للعلوم[4] عام ١٩٨٠،

---

(١) Friedrich-Rückert-Preis

(٢) Die goldene Hammer-Purgstall-Medaille

(٣) Johann-Heinrich-Voss Preis der Deutschen Akademie für Sprache und Dichtung

(٤) Niederländische Königliche Akademie der Wissenschaften

وأكاديمية العلوم في شمال الراين/فستفاليا[١] عام ١٩٨٧، والأكاديمية الأمريكية للعلوم والفنون[٢] عام ١٩٨٧. كما مُنحت أعلى وسامين في الدولة الألمانية وهما: وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى[٣] عام ١٩٨٢، ووسام الاستحقاق الأكبر[٤] عام ١٩٨٩، وحصلت على جائزة الدكتور ليوبولد لوكاس من كلية الدراسات الإنجيلية في جامعة توبنجن[٥] عام ١٩٩٢، وكانت مستشارة لرئيس الجمهورية رومان هرتسوج، ومرافقة شخصية له في زيارته مؤخراً للباكستان وأزبكستان والقوقاز.

دلالات ومؤشرات

لقد استبشرنا خيراً عند ترشيح شِمل لجائزة السلام خاصة، لأن هذه الجائزة لم تعط منذ منحها لأول مرة عام ١٩٥٠م لأي شخصية مسلمة أو لأي قضية إسلامية، بل انحصر حملة الجائزة في إطار المهتمين بقضايا السلام بين المعسكرين الشرقي والغربي، والشخصيات المهتمة برد الاعتبار ليهود أوروبا بعد ويلات الحرب العالمية، والمهتمة بقضايا إسرائيل واليهردية العالمية. وكان من هؤلاء «آموس أوز»[٦] عام ١٩٩٢م، و«فاكلاف هافل»[٧] عام ١٩٨٩، و«تدي كولك»[٨] عام ١٩٨٥م.

---

(١) Nordrhein-Westfälische Akademie der Wissenschaften

(٢) American Academy of Arts and Sciences

(٣) Bundesverdienstkreuz 1. Klasse

(٤) Das Große Bundesverdienstkreuz

(٥) Dr. Leopold-Lucas Preis, Tübingen

(٦) Amos Oz

(٧) Václav Havel

(٨) Teddy Kollek

لم يكن سرورنا بترشيح شمل لهذه الجائزة لحاجة الإسلام إلى هذا التقدير، فالإسلام غني عن ذلك، وكفاه شرفاً أنه دين الله عز وجل الذي ارتضاه لعباده كافة، والذي ختم به رسالاته، والذي اصطفى لتبليغه خير خلقه. إنما سررنا لدلالة هذا الاختيار على استعداد الأوساط الأوروبية الشعبية والرسمية للحوار من أجل التفاهم، وللتعاون من أجل السلام، وللتلاقي من أجل خير البشرية. ورأينا في ذلك مؤشراً لرغبة الأوساط الأدبية والثقافية في العودة إلى الموضوعية والإنصاف في التعامل مع الإسلام والمسلمين، بعد الزوبعات المهرّجة التي صاحبت قضايا سلمان رشدي وتسليمة نسرين ونصر حامد أبو زيد .

ولقد بادر رئيس الجمهورية هرتسوج بإبداء استعداده لتسليم شمل الجائزة التي رشحت لها، وإلقاء خطاب التكريم في الاحتفال المقرر لذلك في ١٥/١٠/١٩٩٥ بمدينة فرانكفورت خلال انعقاد المعرض الدولي للكتاب.

ردود الفعل

لم تكن شمل مهيأة لمواجهة تلك المعركة الإعلامية والحرب الكلامية التي انبرى لها مجموعة من العلمانيين واليساريين المتخصصين في معاداة القيم الدينية والأخلاقية. ووجدت نفسها أمام مسلسل من المنزلقات والمطبات المخططة، كان أولها مقابلة تلفزيونية بعد ساعات من إعلان ترشيحها، سئلت فيها عن رأيها في سلمان رشدي والفتوى الصادرة بقتله. ولقد قامت الدنيا ولم تقعد منذ ذلك الحين لمجرد تصريح شمل أن لديها تفهماً عميقاً لتأثر المسلمين بما في كتاب «الآيات الشيطانية» من جرح لمشاعرهم ومساس

بمقدساتهم. لم يؤخذ عليها أول الأمر تأييدها لملاحقة سلمان رشدي – ولم يصدر ذلك منها – بل أُخذ عليها تفهمها لمشاعر المسلمين، وكان ذلك جريمة لا ينبغي أن تصدر من قبل مرشحة لجائزة السلام!. وبالرغم من مبادرة شِمل إلى التنديد بالفتوى وتكرار رفضها لملاحقة سلمان رشدي وملاحقة تسليمة نسرين، وبالرغم من تصريحها بأنها تتمنى أن تُسوّى القضيتان وأن يعود الشخصان إلى ممارسة حياتهما الطبيعية، وأنها سعت شخصياً من قبل للتوسط لحل مشكلتيهما. إلا أن الحملة المسعورة استمرت بترصد كل كلمة تقولها، وحملها على أسوأ محمل، وبتحريف عباراتها وإخراجها من سياق الحديث. وتطور الأمر إلى اختلاق الحوادث وافتراء الأقوال، والإدلاء بشهادات زور مدعومة بأيمان قانونية أمام القضاء، يدعي أصحابها أن شِمل عبَّرت أمامهم شخصياً أنها تتمنى الموت لسلمان رشدي وتتمنى أن تقتله بيدها!

وكانت أشد الهجمات ضراوة محاولة مجموعة من الكتاب و«الأدباء» قامت خلال شهرين كاملين بدراسة مؤلفات شِمل وتصريحاتها وتاريخ حياتها، وخرجت بخطاب مفتوح إلى لجنة التحكيم يطالبونها بسحب قرارها بترشيح شِمل، ويناشدون رئيس الجمهورية التراجع عن قراره بتسليمها الجائزة وعدم إلقائه خطاب التكريم. وساقت هذه المجموعة نتائج أبحاثها وتحرياتها التي اعتبرتها منتهى ما يمكن التوصل إليه من مآخذ على هذه العالمة. وقد علّقت مجلة «فوكوس»[1] وجريدة «فرنكفورتر ألجمانية»[2] على هذا الخطاب قائلتين بالخط العريض: «**محاولة اتهام شِمل بالأصولية باءت بفشل ذريع!**». وقد أكدت لجنة التحكيم قرارها السابق بعد ساعات

---

(١) "Focus"

(٢) "Frankfurter Allgemeine"

من المداولة قائلة: «**لم يثبت لدينا أي أمر جديد يدعو إلى تغيير قرارنا السابق. خاصة وأن السيدة شمل قد أزالت مرات عديدة بتصريحاتها كل لبس يحوم حول موقفها من قضية سلمان رشدي. ويجب أن يستمر الحوار حول علاقة أوروبا بالحضارة الإسلامية بعد أن بدأ في هذه الظروف**». وأكد رئيس الجمهورية من جانبه قراره بتسليم الجائزة في ١٥/١٠/١٩٩٥م قائلاً: «**لقد أبديت استعدادي لإلقاء خطاب التكريم منطلقاً من ضرورة استمرار الحوار بين العالم الغربي والعالم الإسلامي، ولا تزال الضرورة قائمة**».

ادعاءات المعارضة

من المفيد النظر إلى طريقة تلفيق أهم التهم المنسوبة في خطاب المعارضة الموجه إلى السيدة شمل، والرد المختصر عليها:

الادعاء الأول:

«أيدت شمل الفتوى عام ١٩٨٩ في كتابها «ومحمد نبي الله – منزلة الرسول في الإسلام»[١]، قائلة: «إن سب الرسول يعتبر في معظم المذاهب الإسلامية جريمة تستحق القتل، وذلك منذ مئات السنين».

الرد:

١ – هذا الادعاء مجرد من الأمانة العلمية، إذ أن الكتاب المذكور صدر عام ١٩٨١م، أي قبل ثمان سنوات من صدور الفتوى. ولا يخفى هذا الأمر على مجموعة المؤلفين وأصحاب دور النشر الذين ادعوا ذلك. فهو افتراء وتضليل.

---

(١) "Und Muhammad ist Sein Prophet"

٢ ـ ذكرت الكاتبة موقف المذاهب الإسلامية من مسألة فقهية معينة. والقارئ للنص بكامله لا يجد في كلامها أدنى إشارة إلى التأييد أو التحبيذ.

الادعاء الثاني:

«يدل على تعاطفها مع الأصولية زياراتها الدائمة لإيران، والحفاوة التي تستقبل بها هناك على مستوى ممثلي الدول؛ بالإضافة إلى كتابتها مقدمة كتاب «الإسلام هو البديل» للسفير الألماني السابق مراد هوفمان[1]، الذي يؤيد فيه حكم الشريعة في التعددية والحدود وغير ذلك».

الرد:

١ ـ ذكرت شمل أنها تجنبت زيارة إيران منذ عام ١٩٧١م، وقامت بعد ٢٤ عاماً بزيارة لإيران بناء على دعوة جامعة طهران لإلقاء محاضرة حول موضوع التصوف والفلسفة!.

٢ ـ ليس غريباً أن تقوم المعاهد العلمية الجامعية وأن يقوم العلماء بزيارات علمية لمناطق اهتمامهم، ولا يعتبر ذلك في حد ذاته دليلاً على تأييد وتبنٍ بالضرورة.

٣ ـ هل تعتبر كتابة مقدمة كتاب د. مراد هوفمان وصمة عار أو جريمة، وهو الذي كان يعتبر ممثلاً للدولة الألمانية ولا يزال من ألمع شخصياتها وأكثرها اتزاناً؟ أم أن حرية الكلمة وحق التعبير عن الرأي لا يفهمه هؤلاء الكتاب إلا لمن وافق رأيهم وهاجم الإسلام وانتهك حرمته وكرامته؟.

---

(١) Murad Hofmann, "Der Islam als Alternative"

الادعاء الثالث:

أضاف الكتاب بعد فشل خطابهم الأول اتهاماً جديداً: «قامت شمل بتأبين الرئيس الباكستاني ضياء الحق قائلة: [سوف يصل التاريخ حقاً إلى حكم إيجابي متزن حول الرئيس ضياء الحق]، وكانت دوماً مؤيدة لهذا النظام العسكري بالرغم من موقفه من حقوق الإنسان والتسلح النووي».

الرد:

١ – ومن لا يتمنى الوصول إلى حكم موضوعي متزن بصدد كل إنسان ودولة ونظام؟ إن مجرد التمني لا يعني أن الكاتبة قد أطلقت حكمها على صلاح النظام أو عكس ذلك.

٢ – أكدت الكاتبة أن زياراتها للباكستان كانت دوماً زيارات علمية، وكانت تصر في جميع زياراتها على اللقاء بشكل واضح بجميع عناصر المعارضة كأسرة الرئيس السابق «ذو الفقار علي بوتو». ومن الجدير بالذكر أن ابنته بينظير بوتو هي تلميذة من تلاميذ شمل.

٣ – إذا ساق هؤلاء الكتاب مقياسهم على العلاقات بجميع الدول لوجب أن يتخذوا نفس الموقف من الكتاب والعلماء أو المؤسسات الاقتصادية والمالية والإدارات الحكومية التي تتصل بمعظم دول العالم. وهل لدى الغرب استعداد إلى الرجوع إلى تقارير لجان العفو الدولية ولجان حقوق الإنسان كمقياس لتحديد دائرة العلاقات بين الدول؟ وما شأن الدول التي تملك ترسانات الأسلحة الذرية والكيماوية والبيولوجية ضمن إطار دول مجلس الأمن وخارج ذلك الإطار؟ وما الموقف من إسرائيل وخرقها للقوانين الدولية واعتداءاتها على حقوق الإنسان وتملكها للأسلحة النووية؟.

دائرة المعارضة

من المفيد كذلك النظر إلى الدائرة التي تولت كبر هذه الحملة، ولفت النظر إلى دوافعها وأهدافها. وهي – وإن علا صوتها – دائرة صغيرة محدودة، لا تعبر عن المجتمع الألماني، ولا عن رأي شريحة الكتاب والمؤلفين. وقد بلغ أقصى عدد وقّع على خطاب المعارضة عدة مئات من مجموع ألوف دور النشر والكتاب والمفكرين والمثقفين. والمحلل لقائمة الموقعين يرى بوضوح وجود ثلاث شرائح: شريحة اليساريين والعلمانيين، وشريحة الأعداء التقليديين للإسلاميين، وشريحة راكبي الموجة.

ومن الشريحة الأولى أليس شفارتزر رئيسة تحرير جريدة «إمَّا»[1] والمتصدرة لحملة الإباحية وسيادة المرأة. وعبرت الكاتبة هرتا ملر[2] في هذه المجلة عن دوافعها في توقيع خطاب المعارضة قائلة: «تريد لجنة التحكيم أن تكون هذه الجائزة جسراً بين الحضارات، وسوف تكون حقاً جسراً يفرض علينا القبول بالدكتاتورية وفتاوى الإعدام وشيوخ آلهتهم جلادون.. فسيكون هذا الجسر مصيدة للملاحقين والمطاردين».

ويعبر عن الشريحة الثانية بسام طيبي في المجلة المذكورة قائلاً: «لقد سلك التعامل الأخلاقي في عصرنا هذا.. عصر صراع الحضارات تصرفاً أعمى في علاقاته مع التوجه الجبري الجديد[3].. وهذا التصرف الأعمى هو إرغام المجتمع على حب هذا الغريب والهيام به إلى حد إنكار الذات ومدنيتها. إن السيدة شمل التي سوف تُمنح جائزة معبرة عن الحرية الأدبية تحدد حرية نقد

---

(١) Alice Schwarzer, "EMMA"

(٢) Herta Müller

(٣) منوهاً بالإسلام

الأديان مدعية أن هذا يصل بالمسلمين إلى حد البكاء. إن ما يبكي حقاً هو هذا النمط من الاستشراق الذي لا يكتفي بأن يضرب بقيمه الحضارية عرض الحائط فحسب، بل لا يجد ما يقدمه سوى الحب والهيام».

أما الشريحة الثالثة فمنهم أناس اغتروا ببعض الأسماء اللامعة ضمن الموقعين وتابعوا دون تبين وتأكد. وقد تراجع بعضهم بعد أيام عن توقيعه معتذراً كالسياسي دانيل كون بندت[1] قائلاً: «**إن العالمة شمل لا تمثل بحال من الأحوال الشخصية الأصولية الكريهة. ولقد تسرعتُ في توقيع ذلك الخطاب**».

والجدير بالذكر أن المبادرة بدأت من خلال دار نشر اسمها «أهريمان»[2] والتي تعرف بنفسها قائلة: «إننا نحمل اسم الشخصية الفارسية الأسطورية المعادية للإله، والرافضة للانصياع والطاعة، والحاملة للواء الكفر». وشعار دار النشر هذه هي صورة الشيطان رافعاً قرونه وذيله وحربته، معبراً عن المنطلق المذكور أعلاه. ويرأس فرتس هوفلس[3] – أحد أصحاب دار النشر الثلاثة – «رابطة أعداء التكيف» التي تصفها جريدة فرنكفورتر ألجماينه أنها «تجمع المتناقضات: فهي تعادي الكنيسة وتعادي أمريكا، وتناضل من أجل سلمان رشدي وتدافع عن صدام حسين، وتناصر تسليمة نسرين وجنود الصرب في نفس الوقت، وتدعي أن ستالين لا يزال حياً، وتصف صدام حسين أنه الأب الروحي للوحدة العربية في قطر يسود فيه العدل والمساواة، وتصف الكويتيين أنهم طفيليون كالدود في الدسم».

---

(١) Daniel Cohn-Bendit

(٢) Ahriman

(٣) Fritz Erik Hoevels

مواقف الدفاع

لقد ملأت مواقف الهجوم الساحة الإعلامية نظراً لفعالية الجهات التي تقف خلفها، ولا يعتبر ذلك مقياساً على موقف الأغلبية بحال من الأحوال. وقد برزت مواقف كثير من المؤيدين المدافعين عن شمل، مثل الأستاذ وليام جرهام[١] مدير مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفارد الذي صرح قائلاً: «**إن آخر ما يمكن أن أتصوره أن تكون السيدة شمل داعية إلى عنف ومدافعة عنه**». ووصف الأستاذ أودو شتاينبخ[٢] رئيس معهد الشرق الأوسط في همبورج في عدد من المقابلات التلفزيونية والإذاعية والمقابلات الصحفية الحملة القائمة ضد شمل أنها هجمة مسعورة وقال: «**إن السيدة شمل لم تدافع قط عن «الأصولية»، وسوف يساهم إعطاؤها هذه الجائزة في إخراجنا من روح العداء للإسلام التي لا نزال نوقع أنفسنا في حبالها أكثر فأكثر**». كما وجه مكتب العلاقات الإسلامية التابع للكنيسة البروتستانتية[٣] خطاباً مفتوحاً إلى السيدة شمل مدافعاً عنها ومؤيداً لموقفها وحاثاً لها على الثبات وعدم التراجع والتنازل عن الجائزة، ووضعها أمام مسؤوليتها تجاه قضية الحوار مع الإسلام وتلاقي الجاليات والشعوب.

ووجه عضو الحزب الحاكم الأخ الألماني المسلم عبد الهادي كريستيان هوفمان[٤] خطاباً مفتوحاً إلى رئيس الجمهورية قائلاً: «**إن روح العداء للإسلام التي بدأت قبل تسعمائة عام بالدعوة إلى الحروب الصليبية على يد البابا أربان[٥] يجب أن تنتهي، وأن يكون تسليم جائزة السلام لعالمة**

(١) William Graham, Harvard

(٢) Prof. Udo Steinbach, Deutsches Orientinstitut in Hamburg

(٣) Beratungsstelle für Islamfragen der Evangelischen Kirche im Rheinland und in Westfalen

(٤) Abdul Hadi Christian Hoffmann انظر صفحة ٣٣

(٥) Papst Urban II

الاستشراق شمل رمزاً لذلك». وتابع قائلاً: «**إنني أتخوف من قدوم اللحظة التي أضطر أن أنصح إخواني فيها بمغادرة هذه البلاد، قبل أن يصيبهم ما أصاب الجالية اليهودية التي عاشت في ألمانيا في الثلاثينات، حتى فات الأوان وأبيدت وهي تظن أنه لا يمكن أن يسوء الأمر بها أكثر من ذلك**».

وقامت مجموعة من المسلمين وغير المسلمين من المفكرين والأدباء والعلماء والفنانين بتوجيه خطاب مفتوح لرئيس الجمهورية يندد بحملة العداء للإسلام ولشمل، ويطالب الرئيس بعدم التراجع عن تسليم شمل الجائزة[1]. وقد قام المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا بالمشاركة في هذه المبادرة ودعا الجمعيات والاتحادات والروابط والمساجد إلى تأييدها[2]. وقد وجدت هذه المبادرة صدى مناسباً في الإعلام وتأييداً من شرائح اجتماعية مختلفة. وسوف يشارك المجلس الأعلى في احتفال تسليم الجائزة في ١٥/١٠/١٩٩٥م، في فرنكفورت معبراً عن تأييد الجالية لخط الحوار الهادف والتعاون البناء، ومساهماً في التعبير عن الإسلام، طريق الخير والهدى والصلاح. ﴿**وقيلَ للَّذين اتقوْا ماذا أَنْزَل ربُكُمْ قالوا خيراً للَّذين أحسنوا في هذه الدُّنيا حسنةٌ ولَدَارُ الآخرةِ خيرٌ ولنِعمَ دارُ المتقين**﴾ (النحل: ٣٠)

---

(١) دعا إلى هذه المبادرة الأخ ألكسندر شادو Alexander Schadow

(٢) المؤلف هو رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا. Zentralrat der Muslime in Deutschland

السيرة العلمية

١٩٢٢ ولدت شمل في مدينة ارفورت "Erfurt"في ٧ / ٤ / ١٩٢٢م.

١٩٣٧ بدأت تعلم اللغة العربية في سن الخامسة عشرة.

١٩٣٩ أنهت الدراسة الثانوية في سن السابعة عشرة، وبدأت دراستها الجامعية في برلين في قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية.

١٩٤١ حصلت على درجة الدكتوراة في الاستشراق في سن التاسعة عشرة[١].

١٩٤١–١٩٤٥ عملت مترجمة في وزارة الخارجية الألمانية .

١٩٤٦ حصلت على درجة الآستاذية في جامعة ماربورج "Marburg"في سن الرابعة والعشرين[٢].

١٩٥١ حصلت على درجة الدكتوراة في تاريخ الأديان.

١٩٥٢ قامت بأول زيارة لها للشرق الأوسط إلى تركيا.

---

(١) صدرت هذه الرسالة ضمن سلسلة عالم الإسلام عام ١٩٤٣ بعنوان: «الخليفة والقاضي في مصر في القرون الوسطى المتأخرة»
"Kalif und Kadi im spätmittelalterlichen Ägypten"

(٢) كان عنوان الرسالة: «البنية الاجتماعية لطبقة العسكريين عند المماليك»

١٩٥٣ أستاذة مساعدة في العلوم الإسلامية واللغة العربية في جامعة أنقره.

١٩٥٤ أستاذة كرسي تاريخ الأديان في كلية العلوم الإسلامية بجامعة أنقره.

١٩٦١ أستاذة كرسي اللغة العربية والعلوم الإسلامية في جامعة بون، ومستشارة علمية لشؤونها في جامعة بون.

١٩٦٣ – ١٩٧٣ نشر وتحرير مجلة «فكر وفن»

١٩٦٧ أستاذة مستضافة في جامعة هارڤارد في كمبردج، ومحاضرة في علوم الاستشراق.

١٩٧٠–١٩٩٢ أستاذة حضارة الهند الإسلامية بالهند.

١٩٨٠ محاضرة زائرة في المجلس الأمريكي للعلوم.

١٩٨٢ محاضرة زائرة في جامعتي إيووا "Iowa"ونيويورك ، وفي معهد الدراسات الإسماعيلية بلندن.

قائمة الجوائز والتكريم

١٩٦٥ جائزة فردرش ركارت

Friedrich-Rückert-Preis

١٩٦٦ وسام القائد الأعظم – بالباكستان .

١٩٧٤ الدكتوراة الفخرية من جامعة السند .

١٩٧٤ ميدالية همر برجستال الذهبية

Die goldene Hammer-Purgstall-Medaille

١٩٨٠ جائزة يوهان هاينرش فوس من الأكاديمية الألمانية للغة والشعر

Johann-Heinrich-Voss-Preis der Deutschen Akademie für Sprache und Dichtung

١٩٨٠ عضوية الأكاديمية الهولندية للعلوم

Niederländische Königliche Akademie der Wissenschaften

١٩٨٠–١٩٩٠ رئاسة الجمعية الدولية لتاريخ الأديان .

١٩٨٢ وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى من الدولة الألمانية

Bundesverdienstkreuz 1. Klasse

١٩٨٢ أطلق اسمها على شارع رئيسي في لاهور بالباكستان

١٩٨٣ هلال الامتياز من الحكومة الباكستانية، أعلى وسام مدني

١٩٨٧ جائزة ليفي ديللا فيدا من جامعة لوس أنجلوس

Levi Della Vida

١٩٨٧ أكاديمية العلوم في شمال الراين/فستفاليا

Nordrhein-Westfälische Akademie der Wissenschaften

١٩٨٧ الأكاديمية الأمريكية للعلوم والفنون

American Academy of Arts and Sciences

١٩٨٩ شهادة الدكتوراة الفخرية من جامعة أوبسالا بالسويد

(Uppsala)

١٩٨٩ وسام الاستحقاق الأكبر من الدولة الألمانية

Das Große Bundesverdienstkreuz

١٩٩٢ جائزة الدكتور ليوبولد لوكاس من كلية الدراسات الإنجيلية في جامعة توبنجن

Dr. Leopold-Lucas-Preis, Tübingen

رئاسة «المنتدى الألماني الباكستاني» و«جمعية إقبال الأوروبية»

عضوية فخرية في «الجمعية الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط» و«جمعية المشرق الألمانية» و«الجمعية الأوروبية للدراسات الإيرانية»

ألق كلمة تكريمك للسيدة شمل
يا فخامة الرئيس

خطاب مفتوح إلى رئيس الجمهورية من كريستيان هوفمان[1] في ٧ / ٩ / ١٩٩٥م

كم سرني – وأنا المسلم – أن أسمع نبأ إعطاء جائزة السلام للسيدة آنا ماري شمل.

ولا أعرف وفق أي المقاييس تعطى جائزة السلام، فإنني أستقي معلوماتي من الصحافة، ولكنني أتوقع أنها جائزة تعطى تقديراً لأعمال من شأنها إيجاد السلام وترسيخه. ولقد كان شعوري حقاً أن تقديم الجائزة لهذا العام سيكون عاملاً لإيجاد السلام ولترسيخه بين المسلمين وغير المسلمين، في ألمانيا وخارج حدود ألمانيا على السواء.

نعم، لقد وجب أخيراً، وبعد مرور تسعمائة عام تماماً على مزامير الحقد التي أطلقها البابا أربان[2] محركاً جحافل الحملات الصليبية ضد المسلمين، أن تعطى جائزة السلام لعالمة سخّرت نتاج حياتها العلمي من أجل التعريف

---

(١) عبد الهادى كريستيان هوفمان Abdul Hadi Christian Hoffmann مسلم ألمانى ، كان المتحدث الصحفي في الحزب الحاكم CDU إلى أن اضطر بسبب إعلان إسلامه إلى الاستقالة من منصبه. مؤلف كتاب "Zwischen allen Stühlen"

(٢) Papst Urban II

الموضوعي النزيه بجوهر ديننا وحقيقته.

ولكن ها هي الاحتجاجات المفعمة بالحقد تنطلق ضد لجنة التحكيم وضد صاحبة الجائزة وضد رئيس الجمهورية الذي استعد لإلقاء كلمة التكريم، والذي سيلقيها حقاً كما نتمنى.

يبدو لي أن أليس شفارتسر[1] وصحيباتها يتابعن خطى الحَقود أربان وروح حقده ضد الإسلام:

* باسم النصرانية ولمصلحتها لُعن محمد ﷺ آنذاك ووصم بعدائه للمسيح عليه السلام. ولم تعد تلك الحملة بالخير على النصرانية، كما أثبت التاريخ ذلك.
* واليوم تُلعن آنا ماري شمل باسم الديمقراطية وحفاظاً على حقوق الإنسان، وتوصم بالأصولية. وأتساءل أنا المسلم هل ينسجم أسلوب المواجهة هذا مع روح الديمقراطية وحقوق الإنسان؟

إذا أمعن مخالفو شمل النظر وتعمقوا في التحري واستكشفوا سيرة حياتها كاملة، فلم يجدوا ما يعتد به لدعم مزاعمهم، ولم يكن لزبانية الأمريكي ماك كارثي[2]، الذين يضرب بهم المثل في مطاردة الشيوعيين في الخمسينيات أن يفوقوا هذه التحريات التي أجريت ضد شمل.

حقاً، إن شمل لم تنتقد في كتبها - وقد كتب معظمها قبل الثورة الإيرانية - الدكتاتوريات العسكرية وسواها في الشرق الأدنى والأوسط، إلا أن

---

(١) Alice Schwarzer

(٢) Mc Carthy

آليس شفارتسر وجماعتها يصمون كل إنسان بالأصولية، ما لم يستنكر دوماً الأصولية كما يفهمونها هم وما لم يندد بها دون انقطاع كما يريدون. وهذا يعيد إلى ذاكرتنا ما كان في الستينيات من غوغائية في الجامعات كانت تفرض على كل إنسان بشكل مستمر أن يعارض هذا الحدث أو أن يستنكر ذاك. إنه الإرهاب الفكري الستاليني في أبرع صوره!

إن منهج شمل في عرض جوهر الإسلام بهذه الموضوعية ودون تفسيرات مشوّهة لصورته ومحرّفة له، إنما هو تعرية لأقنعة كل أولئك الذين ما فتئوا منذ عهد أربان إلى يومنا هذا يحاولون لاهثين النيل من الإسلام من خلال العرض الجزئي له والحكم الجائر عليه في ألمانيا.

ويبدو أن هذه التعرية قد أدت مفعولها، فإذا بأولئك المنتقدين يحاولون بدورهم تحطيم السيدة شمل اجتماعياً وأدبياً كرد فعل من جهتهم.

ألم يجدَّ على الظروف التي يعيشها المسلمون اليوم في ألمانيا شيء عما كانت عليه في عهد أربان؟

ثانياً

لقد سعيت منذ اعتناقي الإسلام عام ١٩٨٩ إلى إزالة الأحكام المسبقة ضد الإسلام وإلى إيجاد جو من التفهم له والتسامح معه من خلال كتابي ومن خلال عديد من المحاضرات التي ألقيتها والمقالات التي كتبتها. وإنني لأتخوف اليوم من تلك اللحظة التي أضطر أن أنصح إخواني فيها قائلاً: «غادروا هذه البلاد،

قبل أن يصيبكم ما أصاب الجالية اليهودية التي عاشت في ألمانيا في الثلاثينات حتى فات الأوان وأُبيدت وهي تظن أنه لا يمكن أن يسوء الأمر بها أكثر من ذلك».

لذلك سيكون لاستفادتكم، فخامة الرئيس، من كلمة التكريم للتأكيد على توجيهات أساسية للتعايش في بلدنا هذا أهمية جد بالغة.

ولقد تمكن سابقكم، الرئيس ريشارد فون ڤايتسكر[1]، من خلال خطاب ألقاه يوماً ما أن يغير دفة الأمور. كان ذلك الخطاب هو الذي ألقاه في الثامن من مايو محدداً المعالم الحيوية بشأن موقف ألمانيا من نهاية الحرب، والذي أكسب ألمانيا تقديراً واحتراماً كبيرين في العالم بهذا الصدد.

فخامة الرئيس هرتسوغ..

إن الأمل والرجاء منعقدان بكم لتوجيه كلمة نتجاوز بها أخيراً بعد تسعمائة عام خنادق الحروب الصليبية من أجل بناء صرح السلام في بلدنا هذا.

ألق كلمة تكريمك للسيدة شمل .. فخامة الرئيس.

---

(١) Richard von Weizsäcker

شهادة التكريم

تمنح رابطة الكتاب الألماني
جائزة السلام لعام ١٩٩٥
آنا ماري شمل

التي كرست جهدها طيلة حياتها من أجل التعريف بالإسلام وإيجاد روح القبول له ولمظاهر الحياة في إطاره، ومن أجل إيجاد إمكانية التقائه بأبعاده التجديدية حضارياً مع الغرب..

والتي تعقّبت بفكرها تلك الإمكانية الهامة للسلام بين الشعوب، والساعية للتوفيق بين الإسلام والحداثة، والمنطلقة من محاولة الاستفادة من تمييز القيم الكامنة في جوهر الإسلام واستخلاصها منه.

إن رابطة الكتاب الألماني لتعتبر تكريم آنا ماري شمل في هذه الظروف المليئة بمظاهر التعصب الديني المرعبة، دعماً لتلاقي الحضارات وليس للصدام بينها، وتقديراً لروح التسامح، وإكباراً للشعر والثقافة والفكر القائم على تقدير سائر مظاهر اختلاف الآخرين واحترام التفاوت بينهم.

.. هي مهّدت لنا الطريق للإسلام

كلمة التكريم

التي ألقاها رئيس الجمهورية رومان هرتسوغ بمناسبة تسليم جائزة السلام من رابطة الكتاب الألماني للسيدة آنا ماري شمل – فرنكفورت في ١٩٩٥/١٠/١٥م

لا أحتاج إلى التذكير بأن إعطاء جائزة السلام من رابطة الكتاب الألماني هذا العام قد صوحبت بموجة خلاف شديدة، فهذا كله ملء السمع والبصر.

إلا أن سير النقاش الذي اندلع نتيجة ذلك يملؤني بالكثير من الأمل. إن النقاش الذي لم يكن مشرّفاً في بدايته تحوَّل إلى نقاش موضوعي ساهم في تعميق المعرفة من عدة جوانب، ومكّن كما يبدو لي من التغلب على حدود الجبهات المتعارف عليها وتخطيها. وأعاد إلى أذهاننا جميعاً – سواء منا المؤيد أو المعارض للحائزة على جائزة اليوم – أن اللياقة السياسية لا تشكّل طوقاً يحدد حرية التعبير عن الرأي، التي هي من الضمانات الدستورية .

وتمكن هذا النقاش من إخراج علماء من عزلة قاعات دراساتهم ليستدرجهم إلى اتخاذ المواقف المعلنة للرأي العام. وأدى النقاش إلى معرفة الأهمية الحيوية على الصعيد السياسي الداخلي والخارجي للاهتمام المميز والانشغال العميق بالإسلام. وظهرت الثمار الأولى لهذا النقاش متمثلة في نقل المعرفة. من كان منا يعرف – قبل الخلاف حول آنا ماري شمل – ما هي الصوفية؟ والأهم من

ذلك . . من كان منا ملماً بالاعتبارات المختلفة التي يحكم بها على فتوى ما ؟

إن جائزة السلام لرابطة الكتاب الألماني تنطلق من تراث التنوير، وهي تخدم السلام كما يعبر عن ذلك اسمها . . السلام بين البشر والشعوب، وتخدم دون شك أيضاً السلام بين الدوائر المختلفة للتراث الحضاري والفكري، هذه الدوائر التي كانت قائمة دوماً في عالمنا هذا، والتي اكتسبت في الوقت الأخير بشكل مأساوي عجيب أطراً ومفاهيم جديدة .

إننا نلمس في محيطنا مباشرة أن الإسلام يشكل بالنسبة لنا تحدياً حضارياً، ولا تزال اليهودية ترافقنا في السراء والضراء منذ ما يزيد على الألف عام، وتوجد بالإضافة إلى ذلك أديان وحضارات أخرى تتفاعل معها مئات الملايين من الأدمغة والأفئدة، كالبوذية والهندوسية الكونفوشيوسية، على سبيل ذكر أكبر الأمثلة من بينها .

قد يكون بإمكان القواسم المشتركة في العلوم والتقنية والمعلوماتية العالمية والترابط الاقتصادي العالمي، وقد يكون بإمكان الشبكات الأمنية المشتركة كذلك أن تحمي العالم من تحقق التنبؤ المرتجل المتسرّع القائل بصدام الحضارات، ولكننا في حاجة لأكثر من ذلك إذا أردنا أن نحقق التعايش السلمي على المستوى اللائق بالكرامة البشرية .

إننا في حاجة أولاً إلى بذل جهد حثيث من أجل عدم التسليم ببقاء الحدود بين الحضارات حدوداً دائمة بين الفقر والغنى، أو من أجل العمل على ألا تنشأ حدود من هذا النوع . لذلك فإنني أطالب دوماً وكلما أتيحت لي الفرصة بإيجاد الأسواق الحرة ودعم التعاون الاقتصادي ومضاعفة التنمية لصالح الشعوب الأفقر في عالمنا هذا . ونحن في حاجة ثانياً إلى بذل جهد دون هوادة من أجل إبراز تلك القواسم المشتركة التي اندثرت وإلى تنميتها ودعمها، وإلى

بذل جهد من أجل كسب المؤيدين لتلك الأفكار التي ثبت بالخبرة أنها كفيلة بإيجاد السلام.. بل إننا في حاجة كذلك إلى النضال من أجل تحقيق ذلك حيثما دعت الظروف.

لا شك أنكم تدركون ما أعني بكلماتي الأخيرة: إنني أتحدث عن النضال كما أعمل في نفس الوقت دون كلل ولا ملل لكسب المؤيدين لحقوق الإنسان التي اتفقت عليها الأسرة الدولية. يجب ألا ننسى أن هذه الحقوق لم تتطور لدينا إلا في وقت متأخر نسبياً ومن خلال خطوات صغيرة شاقة مصحوبة بنكسات متكررة ومؤسفة. إن هناك هوة سحيقة لا تزال موجودة لدينا نحن أيضاً بين الأمل والواقع، أذكّر في هذا المضمار هنا فقط بحقوق المرأة على سبيل المثال. وبالرغم من ذلك فإن حقوق الإنسان تشكل حسب علمنا اليوم الفكرة الأجدر بتحقيق السلام بين البشر والشعوب والدول، وبذلك أيضاً بين الحضارات.

ولكنّ هذا كله يوجب زيادة معرفة الشعوب والحضارات ببعضها البعض. فبدون المعرفة المتبادلة لا يتم التفاهم المتبادل، وبدون التفاهم لا يتم الاحترام المتبادل، وبدون الاحترام لا تتوفر الثقة، وبدون الثقة لا يمكن أن يوجد السلام، بل سيوجد حقاً خطر الصراع المؤكد بين الحضارات.

نحتاج إذاً إلى جهود لا حدّ لكثرتها ولا حصر لتنوعها إذا أردنا أن نحقق السلام وإذا أردنا أن نحافظ على السلام.

وكل جهد كبير من هذه الجهود هو محل التقدير والتكريم. لقد قال البعض: «إننا نقدّر السيدة شمل كعالمة، ولكن بأي مقياس استحق الاهتمام العلمي بالأدب وتراث الصحف الأولى جائزة السلام؟». وأنا أقول: ألم يكن أولئك الأدباء والعلماء الانجليز والأمريكيون والروس هم الذين قدموا للعالم في

أحلك عصور التاريخ الألماني فهمهم الخاص وتصورهم المتميز عن المجتمع والثقافة الألمانية، تلك الصورة التي كانت مخالفة للوجه الرسمي آنذاك، والتي تبين لنا الآن أنها كانت هي الأقرب للصحة والقبول. إن الفضل يرجع في الدرجة الأولى لتلك الجهود المتجردة – والتي كانت هي الأخرى غير سياسية آنذاك – في خدمة السلام وفي المساهمة في ترسيخ الصلح بعد تلك الفترة، وذلك من خلال مبادرتها المتميزة.

لم يساهم أي أديب في اكسفورد أو هارڤارد في إعطاء الشرعية للنظام الألماني المستبد آنذاك لمجرد اشتغاله بشرح الشعر من «دون كارلوس» أو «ايجمونت»[1].

إن من سيمنح جائزة السلام إنما هو اتحاد الناشرين الألمان[2]. وهذه الحقيقة تفرض علينا أن نقدر الدور الذي تقوم به الدراسات الأدبية والفكرية في إيجاد السلام وترسيخه.

وهناك ظاهرة تبدو واضحة في علاقاتنا وتعاملنا مع الإسلام في عصرنا الحالي. إننا لا نتجنى على الرأي العام الألماني إذا قلنا أن ما ينعكس في مخيلة الكثير منا عند ذكر الإسلام إنما هو «قانون العقوبات اللاإنساني» أو «عدم التسامح الديني» أو «ظلم المرأة» أو «الأصولية العدائية». ولكن هذا ضيق أفق يجب أن نغيره، فلنتذكر بالمقابل موجة التنوير الإسلامي التي حفظت للغرب قبل ستة أو سبعة قرون أجزاء عظيمة من التراث القديم والتي وجدت نفسها آنذاك أمام نمط من الفكر الغربي، لا شك أنها شعرت أنه أصولي وغير متسامح

---

(١) Don Carlos, Egmont

(٢) انظر الهامش رقم «٢» في الصفحة رقم «١٧»

وأضيف إلى ذلك أمراً آخر.. وهو تأكيد شمل على وجود تلك التيارات الفكرية الصوفية ضمن منظومة الفكر الإسلامي. وهذا يضيف إلى صورة هذه المنظومة بعداً جديداً بالإضافة إلى تصنيفها المتعارف عليه في إطار السنة والشيعة. لقد آن لنا أخيراً أن ندرك أن العالم الإسلامي لا يتكون من كتلة وحيدة متجانسة، وبشكل خاص لا يتكون من كتلة وحيدة أصولية، وهذا أيضاً حال عالمنا نحن. إن الإسلام في أندونيسيا يختلف على سبيل المثال تماماً عن الإسلام في إيران[1]، ولا يغيب عنا أن أندونيسيا هي أكبر دولة إسلامية. ألم ننتبه إلى هذا المؤشر الآخر؟.. لقد أعلن رؤساء الدول التركمانية الستة منذ قليل الأسس المشتركة لسياسة دولهم، وذكر البيان العلمانية ضمن هذه الأسس. ألا ندرك أن كثيراً من الأمور التي ننسبها نحن – ومعظم المسلمين أيضاً – للإسلام غير مثبتة في القرآن؟ وهذا ما سعت السيدة شمل دوماً إلى توضيحه لنا.

قد تختلف تقديراتنا حول أهمية ذلك في تحديد موقفنا من الإسلام. ولكن لا يجوز أن ننكر أن هذا المنحى قد أكسبنا صورة أكثر وضوحاً عن الإسلام وأكثر إنصافاً له، وأن من شأن هذا أن ييسر الحديث الجاد بين الحضارات. وإنني أكرر أن هذا لن يؤدي إلى افتراء انتباهنا إلى أهمية الإسلام على الساحة السياسية العالمية فحسب، بل هو أيضاً في غاية الأهمية بالنسبة لعلاقاتنا مع المسلمين الذين يعيشون في بلدنا هذا.

يبدو كذلك أن مصطلح الأصولية الذي يسهل علينا استخدامه يستخدم بمفاهيم عديدة، مما يجعله أداة للتضليل.

---

(١) في الأصل: «إن إسلام أندونيسيا يختلف على سبيل المثال تماماً عن إسلام إيران».

إن من يستخدم مصطلح الأصولية اليوم يربط به غالباً – وقد يكون محقاً– إذلال المرأة والعقوبات اللاإنسانية للسارقين والزانيات[1]، والاعتداءات على الكتّاب والصحفيين المخالفين. ولكن هذا الذي نسميه أصولية ليس في الحقيقة إلا استغلالاً للمشاعر الدينية وتطويعاً سياسياً لها، إنها قبضة النظام المستبد.

أكرر هنا ما ذكرته في موضع آخر: إنها ظواهر لا يمكن بحال من الأحوال أن نسلم بوجودها أو أن نتعايش معها انطلاقاً من مصلحية سياسية خارجيه أو مساومة بالقيم[2].

إننا نطرح خلال حوارنا مع الآخرين بعضاً من المبادئ التي لا تقبل لدينا أي نقاش، من ضمن هذه المبادئ حرية الكلمة، ونرفض بشكل خاص أن يتعرض أي إنسان لأي ضرر بسبب اقتناعه ومعتقده. لقد تعلمنا – نحن الأوروبيين – من تاريخ دامٍ رهيب مررنا به أن هذه الحقوق لا يجوز أن تتعرض بعد اليوم لتنازل أو حوار.

لذلك لا يمكن أن يقبل أحد هنا تهديدات قتل توجه بسبب تأليف كتاب. ومن يدعي أن هذا الموقف إنما هو موقف غربي جزئي يُراد له أن يفرض نفسه على المعمورة فإنني أقول له: لا يمكن أن يكون للحوار موضع إلا إذا لم يخش أحد أن يتعرض بسبب تصريحاته للسجن أو التعذيب أو القتل. وهذه القواعد ليست غربية وليست شرقية، ولا يمكن أن تقلص بأي نسبية جغرافية أخرى. بل هي المنطلقات الأساسية الأصلية لأي حوار بشكل عام.

ولكيلا يظن أحد أنني أقصد ذلك كله بشكل تجريدي ومعمم، أحدد بشكل قاطع وأقول: إن كل من يهدد سلمان رشدي أو غيره بالقتل بسبب

---

(١) هكذا في الأصل، وليس «الزناة»

(٢) في الأصل: «أو نسبية القيم» Werterelativismus

نص أدبي ما، يجب أن يعلم أنه يجد فينا معارضاً له لا يلين، وأننا سنقف دوماً بجوار كل من هُدد بقتل أو تعذيب، لذلك فإنني أطالب من هنا المسئولين عن تهديدات قتل سلمان رشدي بالتراجع الصادق الأكيد عن تهديداتهم تلك وبسحب المكافأة المشئومة التي وضعت ثمناً لرأسه.

إلا أننا وبنفس الوضوح نقرر أيضاً أنه لا يجوز أن نحظر حق تعبير الكثير من المسلمين الأتقياء بيننا عما يشعرون به متأثرين بما يرون أنه استهزاء بدينهم وربهم.

وهنا بالذات يكمن سبب توجسي: إننا نتحدث بين بعضنا البعض عن الأصولية دون أن نصل إلى أقل حد من توحيد مفهومنا لهذا المصطلح. هل نقصد تلك الاعتداءات التي تحدثنا عن بعض أمثلتها، والتي تشكل - انطلاقاً من تجربتنا التاريخية - اعتداءات واضحة ضد حقوق الإنسان، والتي يمكن أن نصفها دونما حاجة إلى أي مناقشة أنها أعمال إجرامية؟ يهون الأمر نسبياً إن كان هذا هو المقصود من المصطلح، ولا يبقى إلا تحديد الإجراءات التي ينبغي أن نتخذها في نطاق سياستنا الخارجية بناء على ذلك.

هل تتمثل هذه الإجراءات في صورة احتجاجات ومقاطعات سياسية؟ أم في صورة الدعوة المستمرة الواضحة لكسب المؤيدين لموقفنا ووجهة نظرنا؟

إن كل أسلوب من هذه الأساليب له ما يبرره كما أرى، ولكن يجب دوماً تمحيص الأسلوب المناسب والأجدى لكل حالة بعينها.

قد يوجد هناك مستوىً شعوريٌ أكثر عمقاً مما تحدثنا عنه. لقد ذكرت التنوير الإسلامي الذي وُوجه من قبل حضارتنا النصرانية بموقف مخالف يمكن أن نصفه بمقاييس اليوم بالأصولية النصرانية. أليس من المحتمل أن تكون الأدوار

قد تبدلت خلال هذه الفترة؟

أليس محتملاً أن يكون سبب عدم تفهمنا للإسلام هو رسوخه على أسس عميقة من التدين الشعبي، بينما نعيش نحن إلى حد كبير في مجتمع علماني؟ وإن صدق ذلك فكيف نتعامل مع هذه الإشكالية؟ هل يحق لنا أن نصنّف المسلمين الأتقياء مع «الأصوليين الإرهابيين» فقط لمجرد افتقادنا نحن للإحساس السليم تجاه الاستهزاء بالمشاعر الدينية للآخرين، أو لكوننا لم نعد قادرين على التعبير عن هذا الاحساس السليم؟

أنا لست من أنصار المساومات بالقيم[٢]. إن التعددية والتسامح من أهم القيم التي لا يمكن أن نتخلى عنها بحال من الأحوال، ولكنَّ هذه القيم يجب أن تصاغ بشكل واقعي صادق لكي تؤدي دورها المطلوب، وهذا يعني أن الإنسان يجب أن يتعرف على موقف الآخر وأن يفهمه، كما يجب بالمقابل أن يكون له موقفه الخاص لكي يتمكن أصلاً من التسامح مع الآخر. أما المساومة بالقيم فإنها لن تؤدي إلى ترسيخ التسامح بل إلى تمييع المواقف.

أكرر قولي: إننا لا نقبل بالتنازل عن حقوق الإنسان، لا نتخلى عن الكرامة الفردية لكل إنسان، ولا عن حق الحياة، ولا عن تحريم التعذيب والعقوبات الجسدية، ولا عن حق الحرية الفردية، ولا عن حق المساواة بين الرجل والمرأة، ولا عن حرية الفكر والدين والمعتقد. ولا أريد أن أكمل قائمة الحقوق إلى نهايتها. لا يمكن هنا أن نتراجع قيد أنملة عن قناعتنا هذه التي اكتسبناها والتي أكدتها لنا تجربتنا التاريخية المؤلمة.

---

(٢) في الأصل: «أو نسبية القيم» Werterelativismus

ولكن:

كل حوار يدور عالمياً حول حقوق الإنسان يُبرز للعيان أننا لن نصل إلى حل توفيقي بين الحضارات من خلال الاحتجاجات وحدها.

إن خبرة عشرات السنين تؤكد لي أن محاولة كسب الآخرين لموقفنا يحتاج إلى أكثر من مجرد الاحتجاج والتمسك بالرأي، نحن في حاجة هنا لمعرفة طرف الحوار الآخر وفي حاجة للتعرف الحق عليه.

إن كل نظام فكري في عالمنا هذا يحتوي على أفكار ومبادئ تتطابق مع بعض ما يوجد لدى النظام الآخر أو تمت لها على الأقل بقرابة، وإن اختلفت منطلقاتها أو تفسيراتها. لست مبدعاً إذا ذكرت هنا «القاعدة الذهبية» التي نعبر عنها بمثل ألماني يقول: «لا تمس الآخر بما لا تحب أن يمسَّك هو به»[1]، والتي يعبر عنها بصور متشابهة في جميع الحضارات العالية. كم سيكون إنجازاً عظيماً لصالح السلام العالمي ولصالح الحقوق الفردية إذا استطعنا أن نحول هذه القاعدة إلى مقياس عملي لكل إجراء سياسي.

وليست هذه هي الخطوة العملية الوحيدة التي يمكن أن تذكر هنا. إن الندوة التي عقدت في مقر إدارتي في برلين قبل عدة أسابيع، والتي ضمت عدداً من العلماء والفلاسفة من جميع العالم ومن سائر الحضارات، تدفعني إلى التفكير في جوانب عديدة أخرى من كوامن الفكر البشري.

يمكن أن نجنّب أنفسنا مخاطر المواجهة العالمية بين الحضارات من خلال تنمية المصالح الاقتصادية المشتركة في الأسواق العالمية، ومن خلال استخدام الشبكة المعلوماتية العالمية التي ينبغي أن تقوم بتقديم جميع إنجازات المعرفة

(١) "Was du nicht willst, das man dir tu, das füg' auch keinem anderen zu!"

والعلم وأن تسخّرها لصالح العالم وسائر أقطاره. إن محاولة الوصول إلى القاسم المشترك الأكبر بين الحضارات أمر جدير بالمحاولة – كما أرى.

وألفت النظر إلى أن البحث عن القاسم المشترك الأصغر بين الحضارات والأديان في نطاق الأخلاق والقيم لا يعني أن نكتفي نحن في نطاقنا بمراعاة هذا الحد الأدنى، كما لا يعني هذا بطبيعة الحال اكتفاء الحضارات الأخرى به. ولا يعني البحث عنه أن نتخلى عن مفاهيمنا حول كرامة الإنسان وحقوقه أو أن نتوقف عن النضال من أجل الدعوة إليها. ولكننا يمكن أن نقوم نحن وسوانا بذلك جميعاً في سلم وأمن، دون أن يخشى أحد أن الاستعمار القديم قد أبدل وسائله التسلطية السابقة بوسائل فكرية جديدة.

قد يكون ما أقوله حلماً لن يتحقق أبداً، أو لن يتحقق على الأقل في فترة حياتنا نحن. إلا أنه لا يجوز لنا ونحن أمام التخوفات الرهيبة من وقوع صراع شامل بين الحضارات ألا نقوم على الأقل بمحاولة تحويل ذلك الحلم إلى حقيقة.

وإننا لنتساءل بحق، أليس من مصلحة جميع الدول السعي للحيلولة دون تحول هذا السيناريو إلى نبوءة آخذة في التحقق؟ ألا يمكن أن يصبح حوار الحضارات جزءاً من استراتيجية عقلانية لتحقيق السلام؟

هناك مؤشرات تدل على أن الصراع المزعوم بين الحضارات ما هو إلا صراع بين أصوليات سياسية، لا تعيره الأغلبيات المعتدلة في الشعوب أدنى اهتمام. ولكننا ينبغي أن نتساءل عن إمكانية تكوين جبهة تكون في عصرنا هذا جزءاً من استراتيجية عقلانية لتحقيق السلام، تقوم بمواجهة أولئك الذين يفرضون على الآخرين صفة العداء التقليدي، جبهة تعاون تتجاوز حدود الحضارات وتلتقي فيها جهود دعاة التنوير وأنصار الواقعية والباحثين عن الصلح والتسامح بين المدنيات المختلفة.

لتحقيق ذلك الحوار نجد أنفسنا في حاجة إلى أنماط من البشر يشكلون همزات وصل بين الحضارات وقنوات تبادل المعرفة بينها، أناسٍ يمتلكون القدرة على الانتقال الشعوري إلى عالم مصطلحات الآخرين ودوائر خبراتهم، ليقوموا بنقل مكتسبات المعرفة وليشكلوا بذلك جسور الثقة بين سائر الأطراف.

إن آنا ماري شمل من هذه النوعية من البشر، وبذلك استحقت جائزة السلام. إنها شغوفة بعالم الفكر الإسلامي، ومن أجل ذلك يبادلها كثير من المسلمين الحب. من الخطأ والإجحاف أن يُظن أن موقفها هذا تعاضد مع الأصولية السياسية، وهي التي وصفت في كتابها «الأبعاد الصوفية في الإسلام»[1] الخلاف بين الصوفية الإسلامية والأرثوذكسية الإسلامية[2] التي لم تكن ترتاح قط للصوفية. إن العناصر الروحانية والباطنية في الصوفية كما يعبر عنها المستشرق تيتوس بوركات[3] تجعل الصوفية غير مهيأة لأي استغلال أصولي أرثوذكسي، بل إن عدداً من الصوفيين قد تعرضوا مراراً وتكراراً للملاحقة – كما وضحت السيدة شمل ذلك بشكل قاطع – لانطلاقهم من أنهم هم الحملة الحقيقيون للواء الحرية في ذلك الوسط من العداء الناشئ بسبب التنازع على المرجعية الدينية.

إنني لا أريد أن أسهب في تحليل وجوه الشبه والمقارنة بين الصوفية الإسلامية والروحانية النصرانية، والتي تكثر بشكل خاص في مجال المبادرات الاجتماعية. أكتفي بصفتي غير متخصص بلفت النظر إلى هذا المؤشر: لم يبدأ إطلاعي على تلك التعددية والنوعية الهائلة في نطاق الاتجاهات الإسلامية في تاريخ الإسلام وواقعه المعاصر بادئ ذي بدء إلا من خلال كتب آنا ماري شمل.

---

(١) "Die mystischen Dimensionen des Islam"

(٢) ربما قصد السلفية

(٣) Titus Burckhardt

وربما قد مر سواي بنفس هذه التجربة. إننا حقاً في حاجة إلى تعويض ما فوّتنا على أنفسنا من فهم بعضنا بعضاً. لا يجوز أن نسمح لأنفسنا بحال من الأحوال أن نتجاهل هذه التعددية في الاتجاهات الإسلامية، وإلا لساهمنا بذلك في تقوية أولئك العاملين على محاربة التنوع والتعدد الفكري. لا يجوز أن نعمل من خلال ادعاءاتنا على ترسيخ صورة إسلام أحادي التصور، وهو غير موجود في الواقع أصلاً، ولو وجد لما كان إلا دعماً لأغراض الأصوليين السياسيين .

انطلاقاً من اعتبارات سياسة عالمية الحضارة[1] أقرر أنه لا يوجد أمامنا خيار آخر سوى زيادة معرفتنا بالعالم الإسلامي، إذا أردنا أن نعمل من أجل حقوق الإنسان والديمقراطية.

إن انتقالنا الشعوري إلى حضارة أخرى – كما أرشدتنا إلى ذلك السيدة شمل – لا يعني فقدان الذات هناك. إن التفاهم لا يتم إلا انطلاقاً من الموقف الذاتي لكل طرف من الأطراف، فإذا تخلينا عن الموقف الذاتي حرصاً منا على إيجاد التفاهم، فإننا نكون بذلك قد ضيعنا فرصة التفاهم.. إذ لا حاجة للتفاهم بعد تذويب الفوارق التي كان ينبغي الحوار بسببها. إن السبب الحقيقي للتشوق لمعرفة الإسلام والتعرف على حضارته الغنية إنما ينبع من انتمائنا إلى حضارة مغايرة له.

لقد أيقظت السيدة شمل هذا الشوق في نفسي، وأتمنى أن يكون هذا هو حال الكثير سواي. ليس من الضروري لذلك أن يتعمق المرء في الأبعاد التاريخية والفكرية لعلوم الأصول، فهذا أمر يمكن أن نوكله لأهل الاختصاص من بيننا. أود أن أوضح لكم مدى نجاحها في ترجمة الحضارتين عند مرافقتها

(١) اعتذر الرئيس في معرض كلمته عن صعوبة هذا المصطلح .

لي في زيارتي إلى الباكستان. كم فتحت لي قلوب من التقيت بهم من المسلمين. ويا له من فارق بين مجرد تبادل مجاملات دبلوماسية مع الرؤساء والمسؤولين أو كما هو الحال في بعض الأحيان تبادل مذكرات الاحتجاج، وبين أن تتجاوز هذه الوسائل التقليدية في المعاملات الدبلوماسية لتخوض في جوهر العلاقات البشرية، والحضارية منها بشكل خاص.

إلا أن جهود آنا ماري شمل من أجل التصالح والتسامح لها أبعاد داخلية بدأنا لتوّنا في استيعابها شيئاً فشيئاً. لم يعد ممكناً في عصرنا هذا أن نضع حدوداً جغرافية للمعتقدات والأفكار. إن النصارى والمسلمين واللادينيين أصبحوا يعيشون في القطر الواحد والمدينة الواحدة.. بل وفي الشارع الواحد والبيت الواحد. لقد سبق الواقع الاجتماعي الحوار الديني والحضاري، ولكن ينبغي أن يلحق بعضهم ببعض لئلا يتحول التعايش إلى تصارع. لايمكن أن نعيش معاً دون أن نتحدث معاً ودون أن نتعارف. ولقد مهدت لنا آنا ماري شمل هذا الطريق للقاء بالإسلام، وتعلمنا منها كيف نمهد مثله تجاه كل حضارة أخرى.

أتمنى لك السعادة وأهنئك على جائزة السلام يا سيدة شمل.

سوف يقهر الماء صمّ الحجر

كلمة آنا ماري شمل بمناسبة استلامها جائزة السلام

أيها الحفل الموقر

فخامة السيد الرئيس

إنني شاكرة من أعماقي لتلك الكلمة التوجيهية التي شرفتموني بها، والتي أكدتم فيها أهمية التسامح مع الحضارات الأخرى والتفاهم معها لمصلحة سياستنا الذاتية.

عندما فوجئت وسررت بنبأ إعطائي جائزة السلام لم يخطر ببال أحد أن تندلع خلال الأشهر التالية حملة بتلك الشدة والضراوة، لدرجة أن قد ظننت أن إنتاج عمري كله الذي بذلته من أجل التفاهم بين الشرق والغرب قد تحطم تحت وطأتها. ولكنني لم أتنازل عن الجائزة نظراً لشعوري بالمسؤولية تجاه أولئك المستشرقين العاملين بصمت من أجل الحوار، وتجاه محبي الخير في العالم الإسلامي، وتجاه جهد نصف قرن بذلته من أجل التفاهم. إنني لا أتمنى أن يذوق أولئك الذين ووجهت من قبلهم بالعداء دون أن يعرفوا شيئاً من عملي.. لا أتمنى أن يذوق أحدهم مُرَّ ما عانيته.

لقد تعلمت شيئاً.. وهو أن أساليب العلوم والفنون تختلف عن أساليب الصحافة والسياسة. إلا أن الطرفين يتفقان على الأهمية المركزية للكلمة، للكلمة الحرة في مجتمعنا وحياتنا. أعتقد أنني قد شجبت في الأشهر الماضية بما فيه الكفاية تلك الفتوى المشئومة ضد سلمان رشدي، وأبديت استعدادي لبذل قصارى الجهد بطريقتي الخاصة لمناصرة حرية الكلمة.. تلك «الكلمة» التي نظم صديقي الشاعر الباكستاني فايز القصيدة التالية خلال سجنه في الخمسينيات قائلاً في وصف دورها التحريري:

تكلم.. فلا تزال شفتاك حرة!
تكلم .. فلا يزال لسانك لك!
عظامك والجسد طوعك!
تكلم.. لا تزال روحك لك!

انظر.. حدّادك أجّج ناره
أضرم في الحديد احمراره
زرد الحديد يفتح فاه
كل حلقة تزمجر آه.

تكلم.. فقليل الدهر كثير
موت جسدك واللسان قريب!
تكلم.. لا يزال الحق حياً!
تكلم.. قل ما أمرك هيا!

وهذا يسوقني إلى موضوع كلمتي:

خطر في ذهني مراراً أن لو كان فردرش ركارت[1] اليوم على قيد الحياة لاستحق هو جائزة السلام للكتاب الألماني، فقد أدرك أن بإمكان الشعر الذي هو «اللغة الأم للجنس البشري» أن يربط بين الشعوب بوصفه عاملاً مشتركاً بين الحضارات، وهو – ركارت – الذي كان شعاره «الشعر العالمي هو في حد ذاته التصالح العالمي»، وهو الذي ترجم خلال حياته آلاف القصائد من روائع شعر عشرات اللغات.

إلا أن طبيعة الصلة بالعوالم الأخرى كانت في ذلك العصر الذي تحدّث فيه ركارت حول الشعر كوسيط للتصالح العالمي، أو بتعبير آخر كوسط للسلام العالمي كانت تختلف عن الصلة في عصرنا نحن.

لقد قابل الغرب فتوحات المسلمين في محيط البحر المتوسط في القرن الثامن والتاسع باستغراب واستياء، وأخذ من العرب الذين حكموا الأندلس عدة مئات من السنين قواعد العلوم الحديثة. ولقد كانت الكتب التي ألّفها الرازي وابن سينا هي المراجع الطبية الأساسية إلى بداية تاريخ أوروبا المعاصر، وساهمت مؤلفات ابن رشد في إثراء الحوار الديني والفلسفي الذي أدى إلى التنوير الغربي. ونقلت ترجمات طليطلة التي تعايش فيها اليهود والنصارى والمسلمون جنباً إلى جنب، نقلت العلوم العربية إلى حيز الغرب. ودرّس رامون لول[2] الكطلاني قواعد الاحترام المتبادل بين الأديان وتجاوز في تعليمه الحدود النظرية إلى البحوث التطبيقية التي عملت على إيجاد السلام

(١) Friedrich Rückert

(٢) Ramon Lull, Katalanien

من خلال العمل المشترك.

من بعد الحصار التركي لڤيينا عام ١٥٢٩م توالت مآسٍ تركية دموية.

وأمكن بالرغم من ذلك، في نفس الوقت، التعرف على وجه اخر للشرق من خلال الأخبار الموضوعية التي نقلها التجار والرحّالة. زيّنت الترجمة الفرنسية الأولى لقصص «ألف ليلة وليلة» في بداية القرن الثامن عشر لأوروبا صورة لمشرق مليء بالحوريات والجان ومغريات الأهواء، استقت أجيال عديدة من الشعراء والرسّامين والموسيقيين في أوروبا إيحاءاتهم منه. ومكّن التنوير في نفس الوقت الدراسات العربية والإسلامية، وبشكل خاص الدراسات الهندية، من أخذ مكانها المستقل بذاته في تاريخ العلوم. ودفعت الترجمات الأولى للأعمال العلمية إلى نشأة شعر الاستشراق الناطق بالألمانية، وفي ذروته «الديوان الشرقي»[١] لجوته المحتوي على فصل «ملاحظات ومحاورات»[٢] الذي قدم فيه تحليلاً للحضارة الإسلامية لم يُشق له غبار إلى يومنا هذا.

ولكن عندما نشر ركارت عام ١٨٢٠ قصائده المستوحاة من الشعر الفارسي، بعد عام من نشر الديوان الشرقي، كان موقف العامة مما يسمعونه حول أحداث المشرق هو موقف المراقب عن بُعد «.. لنصارع الشعوب بعيداً خلف التخوم التركية». أما نحن اليوم فإن أجهزة الإعلام لا تزودنا بالأخبار فحسب بل تدمجنا مع ما يحدث شئنا أم أبينا ضمن صورة لعالم تدعونا للقلق وتبث أحياناً في روعنا الرعب. هل يمكن أصلاً أن نكوّن علاقة إيجابية مع تلك الحضارة التي ندين لها بالكثير، والتي تبدو لكثير من الأوروبيين في

(١) "West-Östhcher Divan" Johann-Wolfgang von Gocthe

(٢) "Noten und Abhandlungen

نهـاية الغـربة، والتي يؤخـذ عليـهـا بشكل مـتكرر أنهـا لـم تمر بطور التنوير والتـجـديد، والتي تُتـهـم – كـمـا يقـول ياكـوب بوركـارت[1] عنهـا بأسلوبه الرافض المدمِّر قبل قرن من الآن – أنـها «غير قابلة أصلاً للتطور»؟ ألا يغيب عن ذاكرة معظمنا أن هناك أساليب مختلفة كل الاختلاف للتنوع الحضاري في العالم الإسلامي من أقصاه في غرب أفريقيا إلى أقصاه في أندونيسيا، بالرغم من وجود الأرضية المشتركة بين أطرافه والمتمثلة في الإيمان الراسخ بالله الواحد الأحد، وفي الإيمان بمحمد ﷺ كخاتم للنبيين؟

ولكن التـمـيـيـز الدقـيق والحس المرهف للنغـمـات التي بين السطور والذي يمكن من خلاله إدراك الجوانب الإيجابية لواقع الإسلام الحي، يبدو مستحيلاً في عـصـر طوفـان المعلومـات هذا الذي يجـتـاحنا بنمط أخـبـاره الإشـاري المأساوي. «الإنسان عدو ما جهل» هذا ليس مثلاً إغريقياً فقط، بل هو مثل عربي أيضاً. يقص الشاعر الصوفي الكبير مولانا الرومي، شاعر القرن الثالث عشر في ديوان منثورات فارسية كيف يشكو طفل صغير لأمه من عفريت أسود يظهر له مرة بعد مرة ويبث في روعه الذعر والخوف، فتنصحه أمه أن يتحدث مع العفريت «فإنك إن تحدثت معه عرفت ماهيته وأمكنك أن تجد التصرف المناسب للتعامل معه». إنها حقاً **الكلمة** – كما يؤكد الشعراء الفارسيون – التي تمكنك من خلال عبيقها أن تتعرف على خلق محدّثك، كـمـا تـفـضـح رائحـة الثوم التي تفوح من كعكة اللوز محتـواها، وإن حـاول مظهرها الشهي خداع الناظرين.

---

(١) Jacob Burckkhardt

﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ (إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥) إن معظم الأديان تعتبر الكلمة قوة خلاّقة ووعاء للوحي. فهي في النصرانية: المسيح كلمة الله التي ألقاها إلى مريم؛ وهي في الإسلام: القرآن كلام الله. إن الكلمة أمانة غالية في عنق الإنسان يجب عليه أن يحافظ عليها، ولا يجوز له أن يضعفها أو يزوّرها أو يئدها بلسانه، كما يحدث هذا كثيراً.

للكلمة طاقة لا يمكن أن نتجاهلها. وفي قوتها هذه تكمن المسؤولية الخارقة للعادة التي يحملها الشاعر، والتي يحملها أكثر منه المترجم الذي يمكنه بهفوة بسيطة أن يفتح باباً لسوء فهم خطير.

لقد كان العرب القدامى يعتقدون أن للكلمة مثل فعل السهام، وهكذا سخَّر الدكتاتور العراقي صدام حسين شعراء خلال حرب الخليج للترويج لأطماع انتصاراته. ولا يزال للكلمة المنظومة في الثقافة الإسلامية إلى يومنا هذا دور أكبر بمراحل لا نهاية لها من دورها لدينا؛ وإذا كنا نطرب نحن لأنغام الموسيقى ، فإن المسلم أقرب للطرب بجرس الكلام.

لقد تعرفت على اسطنبول شبراً شبراً من خلال تلك القصائد التي أبدع شعراء الأتراك منذ خمسة قرون وصف مدينتهم الخلابة بها. وأحببت الثقافة الباكستانية من خلال الأبيات العشر التي ترددها الألسن هناك في كل بقعة منها. وعندما أوقع أحد طلابي في هارفارد حظُّه السيئ ضمن رهائن السفارة الأمريكية في طهران، تغيرت معاملة حراسه عندما بدأ يرنّم قصائد الرومي وحافظ وإقبال بالفارسية.. لقد ظهرت هنا فجأة تلك اللغة المشتركة القادرة

على تخطي عقبات المتناقضات الفكرية.

إنني أميل إلى تأييد كلمات هردر[1]:

«بإمكاننا من خلال الشعر أن نتعرف على العصور والشعوب بشكل أعمق من تعرفنا عليها من خلال تضليل تاريخ السياسات والحروب».

لقد كان للمراثي الطوال التي كان يَرثى بها شعراء الأردية الحسين حفيد النبي ﷺ في هند القرن التاسع عشر دور ناقد لسلطة الاحتلال البريطاني بشكل خفي، يحتاج منا لا شك إلى فتح «شفرته» لكي ندرك كنهه السياسي. وكم شكا وبكى الشعراء عبر القرون من مُر المنفى والمعتقل.

ولا يزال الشعر يشكل إلى يومنا هذا فجوة يلج فيها أولئك الذين يعانون من استبداد أنظمتهم، ليتمكنوا من العمل الهادي على إحداث التغيير اللازم في محيطهم.

لقد قال هرمان هسّه[2] الذي لا يجهل أحد منا إبداعه في «رحلة المشرق»[3]، قال في كلمته التي ألقاها بمناسبة تسلمه جائزة السلام لعام ١٩٥٥: «ليست قضية الشاعر أن يتكيف مع أي حدث من أحداث الواقع المعاصر، أو أن يزينه ويبرره، وإنما دوره أن يتجاوز الواقع مبرزاً لإمكانات الخير و المحبة والسلام».

ألم يقصد الشاعر اللبناني أدونيس ذلك عندما كتب في معمعة أهوال الحرب الأهلية:

---

(١) Herder

(٢) Hermann Hesse

(٣) "Morgenlandfahrt"

«خذ وردة، واجعل منها وسادة
عما قريب
سينهكك ضعفك
في ضباب الوحل
والقذائف الثقال
ستستولي عليك
عما قريب
خذ وردة وسمِّها ترانيم
وغَنِّ بها في الوجود»[1]

انطبع شعر الشعوب الإسلامية المتأخرة إلى حد كبير بالصوفية. ولكن لا ينبغي أن نعتبر الصوفية إيهامية أو هرباً من الواقع أو أن نعتبرها نحن المتأثرين بالتنوير مجردة من المعاني والقيم. لقد كان كثير من كبار مفكري وشعراء الصوفية متمردين على كل ما اعتبروه ظلماً وجوراً، كنظام الدولة الفاسد والعلماء المتفيهقين الذين وصفهم الغزالي مفكر القرن الحادي عشر الميلادي الكبير في مذكراته، أنهم: «لا تفوتهم شاردة ولا واردة من أحكام النكاح والطلاق، ويفوتهم إدراك وجود الحي القيوم». وتُنقل لنا شواهد مماثلة لذلك من شتى أنماط التراث الديني الصوفي سواء منها تراث الصوفية النصرانية أو الصوفية اليهودية الشرقية، كما أوضح ذلك مارتن بوبر[2]. لقد اكتسب

(١) نأسف لعدم وجود النص العربي الأصلي للقصيدة. وهذه ترجمة الترجمة الألمانية!
(٢) Martin Buber

هؤلاء من خلال سمو قيم نفوسهم روح نقد اجتماعية لاذعة، وتحولوا بذلك إلى طلائع نضال من أجل العدالة الاجتماعية.

إن تاريخ الإسلام عرف أسماءَ كثيرٍ من أمثال هؤلاء المتصوفة الذين وقفوا حياتهم من أجل تحويل حبهم لله وللإنسان إلى حقيقة وواقع. ويعتبر الحلاج الذي قُتل في بغداد عام ٩٢٢ بسبب تصريحاته الدينية الجريئة، وخاصة بسبب مواقفه السياسية، أعظم أولئك المتصوفة، ولا يزال يعتبر في نظر المسلمين إلى يومنا هذا نموذجاً.. محاطاً بالبغض والكراهية من قبل مدارسهم التقليدية، ومحاطاً بالإعجاب من قبل أولئك الذين يرون فيه المثل الحق للحب الإلهي، وكذلك المثل الحق للمناضل ضد مايسمى اليوم بأصحاب النفوذ. ومن أقصوصته حول الفراشة التي تقتحم النار فتتحول إلى نور وحياة جديدة، استوحى جوته قصيدته «أشواق الروح»[1]. ونقرأ ضمن مقطوعة «شهيد العشق الإلهي» التي طالما تغنى بها الشعراء التقدميون في الدول الإسلامية المشهد الذي يعبر فيه إقبال بالفارسية عن نداء الشهيد قائلاً:

انتبه.. واصنع صنيعي !
انتبه.. وابعث الحياة في الموات !

إنه بعث الحياة من جديد في مجتمع أصابه الجمود والتحجر، ولا يكون ذلك بتجاهل المسؤولية الإنسانية الملقاة على عاتق كل فرد، وإنما بأداء الدور الحقيقي المطلوب من كل إنسان، والذي كرمه الله تعالى في القرآن الكريم

(١) "Selige Sehnsucht"

بقوله: ﴿ **ولقد كرمنا بني آدمَ وحملناهم في البرِ والبحرِ ورزقناهم من الطيباتِ وفضلناهم على كثيرٍ ممنْ خلقنا تفضيلاً** ﴾ (الإسراء: ٧٠)[١] والذي حمّله الله أمانة غالية: ﴿ **إنَّا عرضنا الأمانةَ على السمواتِ والأرض والجبالِ فأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشفقنَ منْها وحَمَلَها الإنسانُ إنَّه كانَ ظلوماً جهولاً** ﴾ (الأحزاب: ٧٢) قد يكون إقبال – الأب الفكري للباكستان – خير مثال للتفسير المعاصر للإسلام من خلال شعره الذي كان في الثلاثينيات منتشراً على كل لسان في الهند؛ ولم يكن ممكناً الوصول إلى تلك الجماهير غير المهيئة للاهتمام بالأدب إلا من خلال تلك الكلمات الشاعرية التي كان يسهل حفظها على كل أحد. لقد حاول إقبال متأثراً بجوته والرومي أن يؤصّل وجود إسلام ديناميكي «متحرك مرن». لقد عرف أن الإنسان مكلف بإصلاح أرض الله وفق إرادة الخالق عز وجل، وأنه ملزم باستنفاد أقصى ما يمكنه من إمكانات فهم القرآن وتفسيره الذي لا تنتهي عجائبه، لكي يثبت وجوده أمام متغيرات الأزمان. ولكنه «إقبال» أرشدنا في نفس الوقت إلى أن الإنسان لا يجوز له أن يعتمد اعتماداً مطلقاً على العقل بمفرده، بالرغم من الإعجاب كل الإعجاب بالتقدم التكنولوجي ورغبة اللحاق به. وهذا ما قرره في قصيدته المحورية ضمن «رسالة الشرق» التي رد بها على «ديوان الشرق» لجوته قائلاً: «بوجوب تفاعل العلم مع الحب، والتحليل الناقد مع الإيجابية المحبة من أجل تحقيق القيم الفاضلة لمستقبل البشرية». لقد قال أغسطينو:!! «مدى فهمك للشيء إنما هو بمقدار حبك له»[٢] وبهذا نصل إلى نقطة

---

(١) في الأصل إيعاز خاطئ إلى الآية ٧٢، ويبدو أن هذه هي الآية المقصودة

(٢) Augustinus

تزداد على مر الأيام أهمية في نظري، وهي قضية إبداء التفهم المنطلق من المحبة للحضارات الأخرى. لقد أصبحت كلمة «التفهم» في عصرنا الحالي مرادفة للمعاني السلبية المشابهة لتعبير المسامحة والعفو دون نقد وتمحيص. إن التفهم الحق إنما ينمو على قاعدة من معرفة الحقائق والتطورات التاريخية، وهذا ما ينقص كثيراً من الناس في أيامنا هذه. وكذلك عرف علماء اللاهوت لدينا في العصور الوسطى أن: «الحب هو عين العقل». وقد يتسرع أحدنا بالقول أن حباً كهذا قد يعمي البصر، ولكنني أعتقد أن الحب العميق يزيد البصر عمقاً؛ فإذا بالإنسان يرى أخطاء محبوبه وذنوبه بحساسية أشد مما يواجه بها أخطاء من لا يحب . إن الهول يصيبنا نحن الذين وقفنا حياتنا على دراسة عالم الإسلام بتنوعه وتعدده، والذين عملنا على تعريف العامة الغافلين عن عالم الإسلام بجوانبه الإيجابية.. إن الهول يصيبنا أشد من سوانا من أثر تلك من التصورات التي طرأت في العقود الأخيرة في عدد من أطراف هذا العالم الإسلامي.

إن الحضارة التي سارت على سنة تحية «السلام» تمر اليوم بأطوار من الانغلاق والتصلب الفكري وتبريرية المواقف. وإذا اعتقدنا في أول الأمر أنها محاولة مواجهة التأثير الغربي المتزايد من أجل المحافظة على اتباع سنة النبي محمد ﷺ قدر الإمكان، فإن الأمر يبدو الآن غير ذلك. إننا نجد أنفسنا اليوم إلى حد كبير أمام مظاهر صراع سياسي بحت وإيديولوجيات تستغل الإسلام كشعار وهي أبعد ما تكون عن أسسه الدينية وأصوله.

كلا.. إنني لم أجد في القرآن ولا في السنة أي أمر يدعو إلى إرهاب أو اختطاف أو نص يجيزهما. بل إن مدار الأخلاق في الإسلام هو القاعدة

الذهبية[1] .. لن يرحب أي إنسان عاقل بأي عمل من أعمال العنف تحدث في أي بقعة على وجه الأرض وبغض النظر عن التصورات التي تدفع إليها. ولن تكون فرحة أحد أكبر من فرحتنا نحن المستشرقين لإيقاف أحكام القتل وعقوبات السجن والملاحقة للناقدين ولأصحاب الرأي المخالف لكي نتمكن أخيراً من الدخول في الحوار المطلوب. يبدو أن كثيراً من الأصوليين المتطرفين ينسون تحذير القرآن الكريم.. ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ونهي النبي ﷺ بنعت الآخرين بالكفر.. وهم يحاولون كسب أتباعهم من بين صفوف الشباب العاطلين عن العمل والمنقطعي الصلة بأسرهم والذين يسهل توجيههم بقليل من الشعارات والكلمات الرنانة. إلا أن إسلاماً مستقلاً بهذه الصورة يختلف تماماً عن الإسلام الحي المهيئ للأتباع، إنه يتحول إلى صورة كاريكاتورية للإسلام الأصيل - كما يقول الطاهر بن جلون - «إذ يُطلب منه أن يعبر عن مبدأ سياسي وأطروحة عقائدية لم يسبق لها إلى يومنا هذا وجود في العالم العربي والإسلامي».

وكثيراً ما نجد صورة الغرب مشوّهة كذلك في إعلام عدد من الدول الإسلامية، مما يفرض التوضيح والتصحيح في الجانبين. من الغريب أن نفتقد لدى كثير من المثقفين والمنفتحين منهم المعرفة بتاريخهم وبالمكتسبات التي حققها المسلمون في كثير من أنحاء العالم الإسلامي، ولكم يكون شكر هؤلاء كبيراً عندما يذكّرهم المرء **برفق** بتراث حضارتهم العظيمة، الذي يبدو جامداً أو منسياً تحت ركام قرون من الدهر، ولكنها لا زالت قادرة على

(١) «لا تمسّ الآخر بما لا تحب أن يمسّك هو به»

هدايتهم طريقاً إلى مستقبل هو كما يبدو لي مستقبلهم هم أنفسهم. وأقول بذكّرهم المرء **برفق**، وليس بتوجيه أصبع التأنيب واللوم، الذي قد يؤدي إلى ردة فعل سلبية يحركها الخوف من الغزو الفكري. وإنني لأتحدث من خبرة تجارب مرت بي خلال محاضرات لا حصر لها ألقيتها في عدد من بلاد المشرق خلال أربعين سنة مضت. لقد قمت بتدريس تاريخ الكنيسة والعقيدة النصرانية عندما كنت أستاذة كرسي تاريخ الأديان في الكلية التي افتتحت جديداً آنذاك للعلوم الإسلامية في أنقره، وكنت آنذاك امرأة شابة غير مسلمة – في وقت ندر أن تجد فيه امرأة واحدة في كرسي دراسات الجامعات الألمانية – . وأدركت أهمية هذا الفرع، إذ كثيراً ما ننسى تلك المنزلة الرفيعة التي يتمتع بها المسيح روح الله، والتي تتمتع بها أمه العذراء «عليهما السلام» في القرآن الكريم وفي مشاعر المسلمين الأتقياء. ولنتذكر تلك الكلمات التي كتبها نوڤاليس[1] عام ١٨٠١م في قصعة «هاينرش فون أوفتردنجن»[2] على لسان المسلمة سليمة في معتقلها في القدس:

(أمراؤنا يكرّمون قبر نبيكم الذي نؤمن نحن أيضاً بنبوته، وليت قبره تحول إلى مهد وفاق سعيد ومصدر التقاء وتعاون على بر أبدي)

إن اليهودية والنصرانية والإسلام يتنبؤون جميعاً بسلام يعيش فيه الحمل بجوار الأسد في ظل العدل آخر الدهر. إلا أن السلام ليس أمراً جامداً. إن اليونسكو تقرر ضمن دراستها الصادرة في ديسمبر ١٩٩٤م حول «دور

---

(١) Novalis

(٢) Heinrich von Ofterdingen

الأديان في إيجاد مجتمع السلام»[1] أن السلام هو رحلة دائمة وقضية مستمرة لا نهاية لها. إن السلام هو حقاً قضية النمو الحي الذي ينطلق من ذات كل منا. لقد كانت تزكية النفس من نواقص الذات بالنسبة المعروفة المسلمين هي الجهاد الأكبر، حتى إذا وجدت أنفسهم أمنها وطمأنينتها، أمكنهم بعد ذلك أن يعملوا على إيجاد الأمن والطمأنينة والسلام في العالم من حولهم.

قد يقول البعض أن الصورة التي أرسمها للإسلام إنما هي صورة مثالية بعيدة عن صلابة الواقع السياسي، إلا أنني تعلمت كباحثة في علوم الأديان أنه لا يمكن مقارنة المُثل إلا بمثل أخرى. لقد كتب الأسقف الإنجيلي السويدي تور أندريه[2] في كتابه حول حياة محمد ﷺ: «إن من حق كل معتقد ديني أن يحكم عليه – كما يحكم على أي حركة إصلاحية – بناء على مقاصده وأهدافه وليس بناء على تلك الصورة المحرَّفة لمُثله التي صنعتها أهواء البشر وأطماعهم».

لم يتكون تصوري حول الإسلام من خلال اشتغالي عشرات السنين بنتاج الفن والأدب الإسلامي فحسب، وإنما تكون بشكل أكبر من خلال علاقاتي بكثير من الأصدقاء المسلمين في جميع أطراف العالم ومن مختلف شرائحهم الاجتماعية، أحاطني أولئك بحبهم واحتضنوني ضمن أسرهم وفتحوا لي أبواب التعرف على حضارتهم، إنني مدينة لهم بفضل كبير؛ أريد اليوم أن

---

(١) "The Role of Religion in the Promotion of a Culture of Peace"

(٢) Tor Andrae

أعبر عن جزء يسير منه. إنهم أناس كالسيدة التركية مولوده جنش من مدينة زولنجن[1] التي لم تدفعها جريمة القتل الوحشية التي أودت بأسرتها كاملة إلى بغض الألمان عن بكرة أبيهم، بل عفت وصفحت وجسدت بذلك الإسلام المتسامح الذي طالما عرفته منذ عشرات السنين. وشكراً آخر أعبر عنه لوالديّ اللذَين ربياني في ذلك الجو من الحرية الدينية والتسامح المفعم بعبيق الشعر والأدب، ولأساتذتي وزملائي وتلامذتي الذين ساهم كل منهم بأسلوبه وطريقته في توسيع آفاقي ومداركي.

وشكراً عظيماً أتقدم به إلى إتحاد الناشرين الألمان[2] الذي أقدم على إدخالي ضمن الدائرة الموقرة للحائزين على جائزة السلام، بالرغم من تعريف ابن خلدون فيلسوف التاريخ في شمال أفريقيا في القرن الرابع عشر.. الذي عرَّف العالم بعنوان فصل من فصول مقدمته قائلاً: «في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها»[3]، بل هو الذي ينحصر واجبه في تبصير الآخرين بالثقافة. ولقد أشار مارتن بوبر[4] عام ١٩٥٣م إلى أن تقبُّل الخصم هو منطلق كل حوار. وهذا يسري على علاقة الغرب بالعالم الإسلامي، وإن ازداد خطر تحول الإسلام إلى عدو تقليدي بعد انتهاء صراع المعسكرين الشرقي والغربي. وإنني لأؤمن بالرغم من ذلك مثل بوبر أن الشعوب قادرة على الدخول في حوار حقيقي يتوفر فيه الاحترام المتبادل بين الطرفين، احترام لا تزول معه الفوارق بين البشر في عالمنا هذا ولكن يمكن من خلاله المساعدة

(١) Solingen ، وقد مُنحت مؤخراً الأخت مولودة بسبب موقفها هذا وسام الاستحقاق من الدولة الألمانية في ٢٧/٢/١٩٩٦م

(٢) انظر الهامش رقم «٢» في الصفحة رقم «١٧»

(٣) انظر الفصل الرابع والثلاثين من الباب السادس من مقدمة ابن خلدون

(٤) Martin Buber

أعبر عن جزء يسير منه. إنهم أناس كالسيدة التركية مولوده جنش من مدينة زولنجن[١] التي لم تدفعها جريمة القتل الوحشية التي أودت بأسرتها كاملة إلى بغض الألمان عن بكرة أبيهم، بل عفت وصفحت وجسدت بذلك الإسلام المتسامح الذي طالما عرفته منذ عشرات السنين. وشكراً آخر أعبر عنه لوالديّ اللذَين ربياني في ذلك الجو من الحرية الدينية والتسامح المفعم بعبيق الشعر والأدب، ولأساتذتي وزملائي وتلامذتي الذين ساهم كل منهم بأسلوبه وطريقته في توسيع آفاقي ومداركي.

وشكراً عظيماً أتقدم به إلى إتحاد الناشرين الألمان[٢] الذي أقدم على إدخالي ضمن الدائرة الموقرة للحائزين على جائزة السلام، بالرغم من تعريف ابن خلدون فيلسوف التاريخ في شمال أفريقيا في القرن الرابع عشر.. الذي عرَّف العالم بعنوان فصل من فصول مقدمته قائلاً: «في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها»[٣]، بل هو الذي ينحصر واجبه في تبصير الآخرين بالثقافة. ولقد أشار مارتن بوبر[٤] عام ١٩٥٣م إلى أن تقبُّل الخصم هو منطلق كل حوار. وهذا يسري على علاقة الغرب بالعالم الإسلامي، وإن ازداد خطر تحول الإسلام إلى عدو تقليدي بعد انتهاء صراع المعسكرين الشرقي والغربي. وإنني لأؤمن بالرغم من ذلك مثل بوبر أن الشعوب قادرة على الدخول في حوار حقيقي يتوفر فيه الاحترام المتبادل بين الطرفين، احترام لا تزول معه الفوارق بين البشر في عالمنا هذا ولكن يمكن من خلاله المساعدة

---

(١) Solingen ، وقد مُنحت مؤخراً الآخت مولودة بسبب موقفها هذا وسام الاستحقاق من الدولة الألمانية في ٢٧/٢/١٩٩٦م

(٢) انظر الهامش رقم «٢» في الصفحة رقم «١٧»

(٣) انظر الفصل الرابع والثلاثين من الباب السادس من مقدمة ابن خلدون

(٤) Martin Buber

جائـــزة الســـلام..
الجولة الأخيرة..؟

تذكرت أثناء مراسم الاحتفال بتسليم جائزة «السلام للكتاب الألماني» للسيدة آنا ماري شمل في قاعة الاحتفالات التاريخية بمدينة فرنكفورت قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عنِ الَّذينَ آمنوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ كلَّ خوَّانٍ كَفور**﴾ لم تشهد هذه القاعة في باولس كرشه[1]، التي كانت مهداً للديمقراطية الألمانية ومقراً لأول مجلس شعبي في ألمانيا عام ١٨٤٨م مثل هذا اليوم، على الرغم من مئات المناسبات والاحتفالات التي عقدت فيها. بل لم يشهد الإسلام والمسلمون في ألمانيا مثل هذا اليوم التاريخي في العقود الأخيرة.

لقد كانت قاعة الاحتفالات في باولس كرشه وسواها من القاعات وقصور المؤتمرات مسرحاً لتكريم المدافعين عن الديمقراطية واللبرالية والمحاربين للنازية والعرقية. وكانت تنتهز - أو تُصطنع - المناسبات لتركيز الحديث على قضايا الغرب وجذب الاهتمام إلى همومه ومشاكله، وتأكيد هيمنة قيمه وحضارته. وكثيراً ما استُغلت مثل هذه المناسبات للتعريض بالحضارات الأخرى وتهميش دورها، وكثيراً ما سُخرت للنيل من الإسلام والمسلمين، عن قصد وعلم أو عن جهل ولا مبالاة.

---

(١) Paulskirche

أما يوم الخامس عشر من أكتوبر ١٩٩٥م فقد كان مخالفاً لهذه الصورة تماماً. لقد اجتمع ذلك الحفل في فرنكفورت على هامش أكبر معرض للكتاب في العالم، وبحضور صفوة رجال السياسة والفكر والأدب، وبمشاركة ممثلي الطوائف والأديان، لتكريم عالمة قضت أكثر من نصف قرن في البحث والكتابة حول الإسلام، وفي التعريف بجوانبه الفكرية والحضارية، وفي الدفاع عن قيمه الإنسانية والبشرية.

لم يكن الجديد في الأمر مجرد مشاركة ممثلي الجالية الإسلامية فحسب – وبشكل خاص مشاركة المرأة المسلمة بشخصيتها المتميزة ولباسها الشرعي – بل كان الجديد هو ذلك المستوى الرسمي الرفيع الذي أخذ على عاتقه مهمة الحديث عن الإسلام والدفاع عنه، بدءاً برئيس الجمهورية الألمانية السيد رومان هرتسوج[١]، وعمدة مدينة فرنكفورت السيدة بترا روت[٢]، ورئيس رابطة الكتاب الألماني السيد جرهارد كرتسه[٣].

وكان من الجديد تلك التغطية الإعلامية الشاملة والوجود الصحفي المكثف في ذلك الاحتفال، الذي حول قضية الإسلام والمسلمين – بعد مرور أكثر من أربعة عقود على وجود الجالية المسلمة المعاصرة في هذه البلاد – إلى بؤرة الاهتمام.

وكان جديداً إعطاء أكثر من مليونين ونصف مليون مسلم في هذه البلاد شيئاً من حقهم في التقدير والاحترام، والتأكيد للأجيال المسلمة التي ولدت ونشأت مسلمة في أحضان هذا المجتمع أنها ليست على هامش اهتمامه

---

(١) Bundespräsident Roman Herzog
(٢) Oberbürgermeisterin Petra Roth
(٣) Gerhard Kurtze, Vorsteher des Börsenvereins des Deutschen Buchhandels

وخارج دائرة اعتباره. وكان جديداً ذلك التقدير لأكثر من مائة ألف ألماني مسلم والاعتراف الرسمي بوجودهم والتقبل النفسي والقلبي لهم .

ويمكرون ويمكر الله

لم تتوقف محاولات القلة المعارضة لآنا ماري شمل والمسعّرة لهجمة العداء ضدها. ولم يتوقف مسلسل فضائح تزوير تلك المجموعة وتزييفها للحقائق. فقد أعلن أحد الممثلين اللامعين في النمسا أن توقيعه ضمن قائمة المعارضة لشمل مزور وباطل[١] – كما أعلن الدبلوماسي الأديب أرڤن ڤكرت[٢] عضو إدارة رابطة القلم الألمانية المعارضة لشمل استقالته من الرابطة، قائلاً: «**إن العضوية في رابطة القلم لم تعد مشرفة لي**» واحتج على سطحية تفكير الرابطة وتعبيرها وعودتها بالحوار إلى مستويات «البروباغندا» السياسية الموجهة.

وكأن استمرار المعارضة أدى إلى المزيد من التأييد والتعاطف مع السيدة آنا ماري شمل، فقد قامت رئيسة البرلمان الألماني ريتا زوسموت[٣] باستقبالها في مكتبها. وأعلنت النائبة الثانية لرئيسة البرلمان والمنتمية إلى حزب الخضر آنتيا فولمر[٤] بالإضافة إلى الوزير الاتحادي نوربرت بلوم[٥]، ورؤساء وزراء كل من مقاطعة هسن ومقاطعة تورنجن[٦]، ورئيس حزب الأحرار ڤولفڤنق قرهارد[٧]

---

(١) Fritz Muliar

(٢) Erwin Wickert

(٣) Rita Süssmuth, Präsidentin des Deutschen Bundestages

(٤) Antja Vollmer, Vizepräsidentin des Deutschen Bundestages

(٥) الوزير الاتحادي للعمل والشؤون الاجتماعية Norbert Blüm

(٦) Bundesland Hessen, Bundesland Thüringen

(٧) Wolfgang Gerhardt, FDP-Vorsitzender

تأييدهم لشمل. كما وصف المستشرق الألماني البرفسور ڤرنر انده[١] من جامعة فرايبورج التهم الموجهة إلى شمل بأنها «فكاهات سمجة». وقال: إن السيدة شمل تتمتع بتقدير وإعجاب كبيرين، ويُعرف في الأوساط المتخصصة أنها محاربة للأصولية المتطرفة ومعادية للأنظمة المستبدة.

لم تفقد المعارضة الأمل في تغيير دفة الأحداث إلى آخر ساعة من تقديم الجائزة، إذ قامت فتة منها بتوزيع ثلاثين ألف نسخة من طبعة خاصة مجانية من مجلة «إمَّا»[٢] في ساحات معرض الكتاب الدولي وأمام قاعة الاحتفالات، متضمنة أقوال مجموعة من المعارضين الإباحيين[٣].

كما وقفت مجموعة من النساء المتوشحات بالسواد والمستهزئات بالحجاب الإسلامي عند مدخل باولس كرشه، يحملن لافتات كتب عليها: الحوار مع القتلة؟ – جائزة السلام ١٩٩٦ لفتوى القتل – جائزة الخميني لآنا ماري شمل – موسم بيع حقوق الإنسان – لا نريد هذا العفن[٤] – وغير ذلك من العبارات..

واستقبلت مجموعة من الغوغائيين رئيس الجمهورية وشمل بالصفير ونداءات المعارضة والتقريع والاستهزاء. وكأن هذا قد أدى أيضاً إلى ردة فعل إيجابية، فما أن دخلت السيدة شمل قاعة الاحتفالات حتى دوت القاعة بالتصفيق المستمر والتأييد الذي لم يُشهد مثله إلا نادراً في مثل هذه الاحتفالات. وقوطعت كلمتها مرات متكررة بالتصفيق من قبل المشاركين في الاحتفال الذين ظلوا واقفين ومصفقين زمناً طويلاً عند استلامها للجائزة

---

(١) Prof. Wener Ende, Freiburg

(٢) "EMMA"

(٣) انظر فصل «حرب حول جائزة السلام»

(٤) استخدموا كلمة Schimmel بمعنى العفن، ومن معانيها الجواد والفطر والعفن.

وعند مغادرتها لمكان الحفل. وقد وصفت جريدة «دي ڤلت»[1] هذا الجو تحت عنوان: «التأييد طغى على المعارضة.. والتصفيق أسكت المصفرين» قائلة: «**لقد استطاعت آنا ماري شمل بكلمتها تلك التي ألقتها أن تقلب الصفحة لصالحها، وأن تبدد التوتر الذي استمر منذ أشهر عديدة إلى لحظات وجيزة قبيل بداية الاحتفال. ولو حضر أحد المعارضين ضمن الحاضرين في القاعة، لما أمكنه التعبير عن شيء من معارضته أمام ذلك الإجماع المؤيد لاستحقاق منجزات شمل لهذا التقدير ولهذه الجائزة**».

وقد أضفت تلك المعركة الحادة على كلمة شمل لمسات عاطفية، دلت على تأثرها الشخصي وتفاعلها النفسي مع تلك الأحداث، تمثلت في عباراتها التي استهلت بها كلمتها: «**لقد ظننت تحت وطأة هجمة الشهور الأخيرة أن إنتاج عمري كله الذي بذلته من أجل التفاهم بين الشرق والغرب قد تحطم. ولكنني لم أتنازل عن الجائزة نظراً لشعوري بالمسؤولية تجاه أولئك المستشرقين العاملين بصمت من أجل الحوار، وتجاه محبي الخير في العالم الإسلامي، وتجاه جهد نصف قرن بذلته من أجل التفاهم. وإنني لا أتمنى أن يذوق أولئك الذين ووجهت من قبلهم بالعداء دون أن يعرفوا شيئاً من عملي.. لا أتمنى أن يذوق أحدهم مُرَّ ما عانيته**».

كما تمثل تفاعلها النفسي في خاتمة كلمتها: «**إن طريقي ليس هو طريق التصريحات والبيانات، ولا هو طريق الإثارات والزوابع. إنني أومن أن الماء الصافي سوف ينتصر بحركته الدؤوب على مر الزمن على صم الحجر. وسوف تكون الكلمات التي شرفني بها فخامة الرئيس عوناً ودعماً لي على هذا الطريق.**

---

(١) "Die Welt"

ولكنني أتوجه مع رجاء العون من أجل خدمة السلام بالشكر أولاً وأخيراً إلى من توجه إليه جوته في الديوان الشرقي بقوله:

«لله المشرق!
لله المغرب!
والأرض شمالاً
والأرض جنوباً
تسكن آمنة
ما بين يديه
هو العادل وحده
يريد الحق لعبده
من مائة اسم من أسمائه
تقدس اسمه هذا. آمين»

الإسلام.. العدو التقليدي أم العدو المصطنع؟

إن الحساسية التي يعامل بها الغرب الإسلام والتي كانت «معركة جائزة السلام» ظاهرة من ظواهرها، إن هذه الحساسية تدل على وجود أزمة جذرية عميقة في نفوس الأفراد وفي مؤسسات المجتمع. ومن الخطأ حصر أسبابها في بعض التغيرات المعاصرة مثل سقوط المعسكر الشرقي أو تبلور استراتيجية مصادر الطاقة أو تبدل المحاور العسكرية في العالم.

إن الظواهر المعاصرة إنما هي انعكاسات لأصل نظرة الغرب إلى الإسلام وقيمه وإلى المسلمين ومجتمعاتهم. كما يقول الرئيس هرتسوج في كلمته: «**إننا لا نتجنى على الرأي العام الألماني إذا قلنا أن ما ينعكس في مخيلة الكثير منا عند ذكر الإسلام، إنما هو «قانون العقوبات اللاإنساني» أو «عدم التسامح الديني» أو «ظلم المرأة» أو «الأصولية العدائية»**».

وكما تؤكد ذلك شمل في كلمتها: «إن الإعلام لا يقوم يومياً بتوعيتنا، وإنما يقوم بصهرنا رغم إرادتنا ضمن قالب من الذعر والخوف، لا يمكّننا بحال من الأحوال من تكوين علاقة إيجابية مع الحضارة الإسلامية، تلك الحضارة التي تبدو لمعظم الأوروبيين غريبة متهمة بالضبابية والتخلف والجمود».

وما أسهل كسر هذه الحلقة المعيبة من خلال الحوار والمعرفة والعلم، فالإنسان عدو ما جهل كما تؤكد شمل وتقتبس من كلام الرومي شاعر القرن الثالث عشر أن للكلمة عبيقاً يدل على صاحبها، وتستشهد بقول الله تعالى: ﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها**﴾ (إبراهيم: ٢٤)

إن الخروج من قوقعة الذات وحدود النفس، والانفتاح الموضوعي العادل على الآخرين كفيل بتصحيح كثير من الأحكام المسبقة والصور الواهمة المسيطرة على مخيلة الإنسان الغربي حول الإسلام، والتي تشكل كما يقول الرئيس هرتسوج: «**ضيق أفق يجب أن نغيره**» ويذكّر أن الإسلام الذي يُدعى أنه رجعي وأنه يحتاج إلى عصر تنوير، هو الذي**حمل قبل ستة أو سبعة قرون بتفتحه أجزاء عظيمة من تراث الإغريق وعلومهم إلى الغرب، الذي كان يعد**

بمقياس الإسلام آنذاك أصولياً غير متسامح. وتنتقد شمل من أخذ عليها حبها للإسلام وشغفها به، واتهمها أن هذا يخرجها من موضوعيتها، وترد على ناقديها بكلمة القيصر اغسطينو[1]: «مدى فهمك للشيء إنما هو بمقدار حبك له»، وبقول علماء اللاهوت في العصور الوسطى: «الحب هو عين العقل»، وتؤكد أنها لا ترى أن حبها للإسلام أعمى بصرها، بل «**إن الحب العميق يزيد البصر عمقاً فإذا بالإنسان يرى أخطاء محبوبه وذنوبه بحساسية أشد مما يواجه به أخطاء من لا يحب**»».

ثم تصحح صورة الإسلام المتهم بالعنف والعدوانية، وتستغرب من وصم دين بهذه التهم وهو الذي جعل تحيته «السلام عليكم». وتضيف قائلة: «**كلا.. إنني لم أجد في القرآن ولا في السنة ما يأمر بإرهاب أو يدعو إلى عنف. بل إن مدار الأخلاق في الإسلام هو القاعدة الذهبية: «عامل الناس بما تحب أن تعامل به»**. **وقول الله تعالى ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾** (البقرة: ٢٥٦)». كما تلفت النظر إلى أولئك الذين يشوهون صورة الإسلام ويستغلونه من أجل تحقيق مطامح ذاتية ومن أجل قهر الشعوب وإذلالها. وترفض أن يحمَّل الإسلام جريرة أخطاء هؤلاء.

تعايش الحضارات أم صراعها؟

لقد تمكنت الحضارة الإسلامية من المحافظة على تراث الحضارات الأخرى ونقله إلى عالمها وعصرها، بنفس القدر الذي تمكنت فيه من التعايش مع الحضارات القائمة آنذاك، بوعي وانفتاح مكنا من المحافظة على إيجابياتها

(١) Augustinus

وتقويم سلبياتها دون سلبها ذاتيتها وخصائصها: «**ولقد كانت الكتب التي ألّفها الرازي وابن سينا هي المراجع الطبية الأساسية إلى بداية تاريخ أوروبا المعاصر، وساهمت مؤلفات ابن رشد في إثراء الحوار الديني والفلسفي الذي أدى إلى التنوير الغربي. ونقلت ترجمات طليطلة التي تعايش فيها اليهود والنصارى والمسلمون جنباً إلى جنب، نقلت العلوم العربية إلى حيز الغرب. ودرّس الكطلاني قواعد الاحترام المتبادل بين الأديان وتجاوز في تعليمه الحدود النظرية إلى البحوث التطبيقية التي عملت على إيجاد السلام من خلال العمل المشترك**». كما تقول شمل في كلمتها.

كيف كان ممكناً أن تتعايش الحضارات خلال مئات السنين على هذا المستوى الإنساني والحضاري؟ ولماذا لم يعد ذلك ممكناً في عصرنا الحاضر؟ لماذا أصبحت النظرة إلى الوجود الإسلامي نظرة: «**تحد معاصر يلمسه كل منا بجواره**» كما يقول الرئيس هرتسوج؟ هل أصبحت نظرية «هنجتنجتن» القائلة بصراع الحضارات[1] حتمية لا مفر منها؟. إن الحرب التي دارت أخيراً حول جائزة السلام توحي بأن مجرد الحديث عن الحضارة الأخرى، والتعريف الموضوعي بها يحر إلى الوقوف بن جبهات الصراع. «**قد يكون بإمكان القواسم المشتركة في العلوم والتقنية والمعلوماتية العالمية، والترابط الاقتصادي العالمي، وقد يكون بإمكان القواسم الشبكات الأمنية المشتركة أن تحمي العالم من تحقق التنبؤ المرتجل المتسرع والقائل بصدام الحضارات**» كما يقول الرئيس هرتسوج، ويضيف قائلاً: «**ولكننا في حاجة لأكثر من ذلك إذا أردنا أن نحقق التعايش السلمي على المستوى اللائق بالكرامة البشرية**».

---

(١) «Hungtington» "Clash of Civilizations"

إن الحضارة المهيمنة – وهي بالمقاييس الدنيوية الحضارة الغربية حالياً – يجب أن تكون هي المبادرة بكل ذلك، وأن ينبع الاستعداد للتعايش مع الحضارات الأخرى، من ذاتية تلك الحضارة المهيمنة، على مستوى الند البشري.

وقد قامت الحضارة الإسلامية بهذا الدور منطلقة من قيمها الدينية العقيدية، فكان نتيجة ذلك الخير والتقدم لكل البشر. يعترف بهذا كاسترو أميريكو في كتابه «إسبانيا وتاريخها» قائلاً: «**لقد كان التسامح في الأندلس إسلامي المنبع ولم يكن نصرانياً**» (١)

ويختم الدكتور فلكارثل أستاذ الإسبانية في جامعة آخن محاضرة له حول سقوط قرطبة قائلاً:

«**عندما اجتاح نصارى الشمال الأندلس بكامله بين عام ١٢٤٥ وعام ١٢٥٥ لم يبق هنالك أي مجال للتسامح بعد**» (٢)

ويرشد الرئيس هرتسوج في كلمته إلى الأسس التي يمكن أن يتم عليها التعايش الحضاري: «**يجب أن تنمو معرفة الشعوب والحضارات ببعضها البعض. فبدون المعرفة المتبادلة لا يتم التفاهم المتبادل، وبدون التفاهم لا يتم الاحترام المتبادل، وبدون الاحترام لا تتوفر الثقة، وبدون ثقة لا يمكن أن يكون السلام بل سيوجد حقاً خطر الصراع المؤكد بين الحضارات**».

ولا يغفل الرئيس الأبعاد الداخلية للتلاقي الحضاري وأثر ذلك على المواطنين المسلمين في ألمانيا: «**لم يعد ممكناً في عصرنا هذا أن نضع حدوداً جغرافية**

---

(١) Castro Americo, Espana en su historia الصفحة «٢١٠»

(٢) Dr. Angustin Valcarzel 28.10.1992 Konrad - Adenauer - Stiftung, Wesseling

للمعتقدات والأفكار. إن النصارى والمسلمين واللادينيين أصبحوا يعيشون في القطر الواحد والمدينة الواحدة .. بل وفي الشارع الواحد والبيت الواحد. لقد سبق الواقع الاجتماعي الحوار الديني والحضاري، ولكن ينبغي أن يلحق بعضهم ببعض لئلا يتحول التعايش إلى تصارع . لا يمكن أن نعيش معاً دون أن نتحدث معاً ودون أن نتعارف. ولقد مهدت لنا آنا ماري شمل هذا الطريق للقاء بالإسلام، وتعلمنا منها كيف نمهد مثله تجاه كل حضارة أخرى».

سلمان رشدي.. مقياس الحريات؟!

في مقال لشمل بعنوان «الإسلام المتجنى عليه» تقول الكاتبة: «**من الطبيعي أن أتنصل من «الحركات الأصولية» وأن أشجب فتوى إعدام سلمان رشدي وجائزة قتله. ولكن ألا يدل على عدم كفاءة مجتمعنا هذا للحوار أن اضطر دوماً إلى تكرار تصريحي هذا لعدم استعداد البعض لاستيعاب كلامي؟**»

بل الأعجب من ذلك يا سيدة شمل أن يطارد باسم حماية «حق التعبير عن الرأي» كل من أراد أن يعبر عن رأيه في سلمان رشدي. والأكثر عجباً أن يتجرأ من هو مدين بالفضل لهذا «الحق» في إقامته في أوروبا وفي إعطائه سمعة وصيتاً، هو دون مستواها بمراحل – كتسليمة نسرين وسلمان رشدي – أن يتجرأ على حجب «حق التعبير عن الرأي» عن سواهم.

عندما سئلت تسليمة نسرين عن رأيها في إعطاء شمل جائزة السلام قالت: **إنها وصمة عار على ألمانيا!!** وعندما طلب من شمل التعليق على ذلك قالت: «**لقد انتقدتُ تسلمية نسرين عدة مرات من الناحية الأدبية، إذ أني لا أرى أنه يمكن اعتبارها من كبار الكتاب. ولا أعرف كيف وصلَت**

هي إلى هذا الحكم على مؤلفاتي وكتبي وأعمالي، وهي حسب علمي لا تجيد الألمانية أصلاً»

لقد كاد سلمان رشدي وتسليمة نسرين أن يصبحا مقياساً للفهم الصحيح للحرية والكرامة وحقوق الإنسان. بل كادا أن يصبحا إلهين في ميدان «الأصولية الإباحية»، يعطى لهما الحق في النيل من كرامة كل إنسان في أعماق أبعاده الإنسانية ومعتقداته الدينية، والويل لمن نال من شخصيتيهما أو عبر عن رأيه فيهما!! ولا نتحدث **نحن** عن مقاييس الغرب أصلاً في حدود اللائق ديناً وعقلاً في جانب الله عز وجل وأنبيائه وكتبه، ولا عن الفجوة الكبيرة بين هذه المقاييس ومقياس الإسلام لها، فقد نوه إلى ذلك الرئيس هرتسوج نفسه في نقد ذاتي للحضارة الغربية قائلاً: «**أليس محتملاً أن يكون سبب عدم تفهمنا للإسلام هو رسوخه على أسس عميقة من التدين الشعبي، بينما نعيش نحن إلى حد كبير في مجتمع علماني؟ وإن صدق ذلك فكيف نتعامل مع هذه الإشكالية؟ هل يحق لنا أن نصنّف المسلمين الأتقياء مع «الأصوليين الإرهابيين» فقط لمجرد افتقادنا نحن للإحساس السليم تجاه الاستهزاء بالمشاعر الدينية للآخرين، أو لكوننا لم نعد قادرين على التعبير عن هذا الإحساس السليم؟!**»

إن من مقومات التعايش الحضاري التعرف المتجرد على الآخر، والاستعداد لتقبل الفوارق في المقاييس والمعايير والتطبيقات، وعدم تجهيز القوالب الخاصة لحشر الفكر الآخر فيها، واستعباد المخالفين من خلالها.

* * *

الجولة الأخيرة؟

لا نتوقع أن تكون هذه الزوبعة قد انتهت بتسليم جائزة السلام لآنا ماري شمل، بل لقد بدأ طور جديد من الاهتمام بالإسلام وبدأت جولة جديدة من الحوار. ولقد مررنا بطور سابق وجولات قبل ذلك إثر حرب الخليج.. ولا نزال نتابع اهتمام الأوساط الإعلامية والشعبية والرسمية الذي بدأ آنذاك. عبرتُ عن هذه المشاعر أثناء مغادرتي قاعة الاحتفالات لسفير دولة إسلامية في جنوب شرق آسيا بقولي: « **نتمنى أن يعود الحوار الآن إلى الموضوعية والهدوء، وأن تنمو ثقة المجتمع بالإسلام الحق**» فأجاب قائلاً: «**إن هذا يرجع إليكم أنتم**» يقصد إلى المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا وإلى المؤسسات والمراكز والهيئات الإسلامية.

نعم إنه تحد جديد، وهي فرصة متاحة للعاملين للإسلام في ألمانيا وأوروبا للاستفادة من استعداد المجتمع للحوار، وتهيُّئه للمعرفة، وتطلعه للتعاون.

يجب أن يرتفع كل منا إلى المستوى الذي يمكّنه من التعبير عن الإسلام وتجسيده في هذا المجتمع. ولن تعجز إمكانات شخص وإنْ قلّت عن القيام ببعض هذا الواجب الإسلامي العظيم.

لقد تمكنت أخت تركية بسيطة من التعبير عن أنصع وجوه الإسلام بكرمها وتسامحها وعفوها عند المقدرة. والتي لم يُر منها بعد أن حرق

المتطرفون النازيون بيتها والتهمت النيران خمساً من بناتها وحفيداتها.. لم يُر منها إلا رباطة الجأش والصبر والاحتساب.. والتأكيد أن صنيع هؤلاء ينبغي ألا يدعونا إلى بغض هذا المجتمع أو كره الشعب الألماني الذي أصبحنا جزءاً منه. لقد ضربت آنا ماري شمل في ختام كلمتها المثل بمولودة جنش[1] رمزاً للشخصية الإسلامية المعبرة عن قيم هذا الدين ومبادئه.

وليكن لنا وللإسلام في كل ميدان «مولود» و«مولودة» نكن شهداء حق وعدل على الناس، ودعاة خير وهدى.

﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ (التوبة: ١٠٥).

---

(١) Mevlude Genc

من قائمة الكتب

١ – «من القدح الذهبي» "Aus dem goldenen Becher"

مختارات من سبعة قرون من الشعر التركي – ٢٣٢ صفحة

٢ – «قولك الحق» "Dein Wille geschehe"

قبسات من روائع الدعاء في الإسلام – ٩٣ صفحة

٣ – «عالم الأعداد» "Das Mysterium der Zahl"

مقارنة للرمزية العددية في عدد من الحضارات – ٣٤٣ صفحة

٤ – «الرومي – أنا النسيم وأنت اللظى» "Ich bin Wind und du bist Feuer"

حياة جلال الدين الرومي وأعماله باللغة الألمانية

٥ – «الشمس الظافرة» "The triumphal Sun"

حياة جلال الدين الرومي وأعماله، الكتاب السابق باللغة الإنجليزية

٦ – الكتاب السابق باللغة الفارسية

٧ – «الرومي – أنا النسيم وأنت اللظى» "I am Wind, you are Fire"

صياغة جديدة للنص الإنجليزي

٨ – « ومحمد نبي الله » "Und Muhammad ist Sein Prophet"

منزلة الرسول ﷺ في الإسلام – ٢٨٠ صفحة، باللغة الألمانية

٩ – « ومحمد نبي الله » "And Muhammad is His Messenger"

منزلة الرسول ﷺ في الإسلام – الكتاب السابق باللغة الإنجليزية

١٠ – « جنان المعرفة » "Gärten der Erkenntnis"

كتاب الأربعين شيخاً – ٢٧١ صفحة

١١ – « محمد إقبال – شاعر وفيلسوف » "Muhammad Iqbal.

"Poet und prophetischer Philosoph" حياته وأعماله – ٢٣٩ صفحة

١٢ – « جناح جبريل » "Gabriel's Wing"

حياة محمد إقبال وأعماله – الكتاب السابق باللغة الإنجليزية

١٣ – « من علي إلى الزهراء » "Von Ali bis Zahra"

الأسماء والتسمية في الإسلام

١٤ – « يونس إمري » "Yunus Emre : Ausgewählte Gedichte"

مختارات من قصائد الشاعر التركي

١٥ – « فريدرش ركارت » "Friedrich Rückert"

حياته وأعماله

١٦ – « قطة المشرق » "Die orientalische Katze"

متصوفة الشرق وأشعارهم – قصص وحكم وأناشيد – ١٥٠ صفحة

١٧ – « الصوفي – حب للأحد » "Sufi, Liebe zu dem Einen"

نصوص من التراث الصوفي

١٨ – « أبعاد التصوف الإسلامي » "Mystische Dimensionen des Islam"

تاريخ الصوفية ونشأتها باللغة الألمانية

١٩ – « أبعاد التصوف الإسلامي » "Mystical Dimensions of Islam"

تاريخ الصوفية ونشأتها، باللغة الإنجليزية

٢٠ – « اللغة العربية » "Arabische Sprachlehre"

كتاب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها – ٢٤٧ صفحة

٢١ – « مفتاح تعليم اللغة العربية » Schlüssel zu "Arabische Sprachlehre"

٢٤ صفحة

٢٢ – « الإسلام – مدخل وتعريف » "Der Islam. Eine Einführung"

٢٣ – « موسوعة أديان البشر » "Riligionen der Menschheit"

القسم الإسلامي من الموسوعة المكونة من ٣٦ مجلداً

٢٤ – « الإسلام – حضارته واتجاهاته المعاصرة » "Der Islam -

Islamische Kultur, Zeitgenössische Strömungen" ٤٨٦ صفحة

٢٥ – « جبال وقفار ومقامات » "Berge, Wüsten, Heiligtümer"

عرض وشروح لرحلات إلى الباكستان والهند – ٢٨٧ صفحة

٢٦ – «ديمرشي يعني شمت» "Herr "Demirci" heißt einfach "Schmidt"

الأسماء التركية ومعانيها – ١٠٠ صفحة

٢٧ – «الإسلام في شبه القارة الهندية» "Der Islam im indischen Subkontinent"

١٦٣ صفحة – باللغة الألمانية

٢٨ – «الإسلام في شبه القارة الهندية» "Islam in the Indian Subcontinent"

الكتاب السابق باللغة الإنجليزية

٢٩ – «أخي إسماعيل» "Mein Bruder Ismail"

خواطر وذكريات من تركيا

٣٠ – «روحي مؤنثة» "Meine Seele ist eine Frau"

الأنوثة في الإسلام – ١٦٠ صفحة

٣١ – «خذ وردة وسمِّها أغاني..» "Nimm eine Rose und nenne sie Lieder"

شعر الشعوب الإسلامية – ٢٥٣ صفحة

٣٢ – «جولات مع يونس إمري» "Wanderungen mit Yunus Emre"

٣٣ – «عالم الإسلام – أصول المشرق الإسلامي – رحلة إلى الذات»

١٦٨ صفحة "Die Welt des Islam"

٣٤ – «التقارب بين المشرق والمغرب» "West-Östliche Annäherungen"

اتصالات أوروبا بالعالم الإسلامي – ٢٠٠ صفحة

٣٥ – «آيات الله – العوالم الدينية في الإسلام» "Die Zeichen Gottes"

٣٨٠ صفحة

٣٦ – «الحكمة في الإسلام» "Weisheit des Islam"

٣٠١ صفحة

٣٧ – «أدب اللغة الأوردية من البدايات إلى إقبال» "Classical Urdu Literature from the Beginning to Iqbal "

١٧٣ صفحة

٣٨ – «العزة ردائي» "Gewänder Gottes"

٥٩ صفحة

٣٩ – «القرآن» "Der Koran" Übersetzt von Max Henning

مقدمة ترجمة معاني القرآن لماكس هننغ

٤٠ – «أدب السند» "Sindhi Literatur"

تاريخ الأدب الهندي – ٤١ صفحة

٤١ – «نجم وزهرة» "Stern und Blume"

التصوير في الأدب الفارسي – ٣١٥ صفحة

٤٢ – «الكون والخالق» "Von allem und vom Einen"

مناجاة جلال الدين الرومي

٤٣ – «من خلال الحجب» "As throngh a Veil"

محاضرات حول الشعر الصوفي – باللغة الإنجليزية

٤٤ – «العسر بساط اليسر» "Bedrängnisse sind Teppiche voller Gnaden"

حِكم ابن عطاء الله

٤٥ – «رسالة المشرق» "Die Botschaft des Oreints"

مختارات من أعمال محمد إقبال

٤٦ – «رقص الشرار مجاز النار في شعر أسد الله غالب» "A Dance of Sparks Imagery of Fire in Ghalibs Poetry"

الكتاب السابق باللغة الإنجليزية

٤٧ – «موج الزهور – موج الخمور» "Woge der Rose, Woge des Weins"

مختارات من شعر أسد الله غالب – باللغة الألمانية

٤٨ – «آلام وألطاف» "Pain and Grace"

حياة الشاعرين الهنديين مير دارد الدهلوي

وشاه عبد اللطيف البهيتي وأعمالهما – باللغة الإنجليزية

٤٩ – «بحث بلا نهاية» "Unendliche Suche-Geschichten des Schah Abdul Latif von Sindh"

قصص وطرائف لشاه عبد اللطيف السندي

قائمة الحائزين على جائزة السلام للكتاب الألماني

١ – ماكس تاو	1950 Max Tau
٢ – ألبرت شڤايتسر	1951 Albert Schweitzer
٣ – روما نو غارديني	1952 Romano Guardini
٤ – مارتن بوبر	1953 Martin Buber
٥ – كارل بُركارت	1954 Carl J. Burckhardt
٦ – هرمان هسّه	1955 Hermann Hesse
٧ – راينولد شنايدر	1956 Reinhold Schneider
٨ – تورنتون فِلدر	1957 Thornton Wilder
٩ – كارل ياسبرس	1958 Karl Jaspers
١٠ – تيودور هويس: أول رئيس لجمهورية ألمانيا الاتحادية	1959 Theodor Heuss
١١ – فيكتور غولانس	1960 Victor Gollancz
١٢ – سارفيبالي راداكريشنان	1961 Sarvepalli Radhakrishnan
١٣ – باول تِلّش	1962 Paul Tillich

١٤ – كارل فردرش فون فايتزكر: فيلسوف، أخو رئيس الجمهورية السابق	1963 Carl Friedrich von Weizsäcker
١٥ – غابريل مارسل	1964 Gabriel Marcel
١٦ – نللي زاكس	1965 Nelly Sachs
١٧ – اغسطين بيا / ويلم فسّرتهوفت	1966 Augustin Bea und Willem A. Visser `t Hooft
١٨ – إرنست بلوخ	1967 Ernst Bloch
١٩ – ليوبولد سيدار زنغور	1968 Léopold Sedar Senghor
٢٠ – الكسندر متشرلش	1969 Alexander Mitscherlich
٢١ – ألفا مردال / غونار مردال	1970 Alva und Gunnar Myrdal
٢٢ – الدوقة ماريون دونهوف: ناشرة جريدة "Die Zeit"	1971 Marion Gräfin Dönhoff
٢٣ – يانوش كوريزاك	1972 Janusz Korczak
٢٤ – نادي روما	1973 The Club of Rome
٢٥ – فرير روجيه	1974 Frère Roger
٢٦ – ألفرد غروسّر	1975 Alfred Grosser
٢٧ – ماكس فرش	1976 Max Frisch
٢٨ – لشك كولاكوفسكي	1977 Leszek Kolakowski
٢٩ – أسترد لندغرن	1978 Astrid Lindgren
٣٠ – يهودي مينوهين	1979 Yehudi Menuhin

٣١ – إرنستو كاردنال	1980 Ernesto Cardenal
٣٢ – لف كوبلف:	1981 Lew Kopelew
مُعارض روسي يهودي	
٣٣ – جورج كنّان	1982 George F. Kennan
٣٤ – مانيه شربر	1983 Manès Sperber
٣٥ – اكتافيو باز	1984 Octavio paz
٣٦ – تدّى كُلك:	1985 Teddy Kollek
العمدة السابق لمدينة القدس	
٣٧ – فالدسلاف بارتوسفسكي	1986 Waldyslaw Bartoszewski
٣٨ – هانس يوناس	1987 Hans Jonas
٣٩ – زيجفرد لنس	1988 Siegfried Lenz
٤٠ – فاكلاف هافل:	1989 Vàclav Havel
أول رئيس لتشيكوسلوفاكيا الحرة	
٤١ – كارل ديدتسيوس	1990 Karl Dedecius
٤٢ – جيورجي كونراد	1991 György Konrád
٤٣ – آموس أوز	1992 Amos Oz
٤٤ – فردرش شورلمر	1993 Friedrich Schorlemmer
٤٥ – جورج سمبرون	1994 Jorge Semprún
٤٦ – آنا ماري شمل	1995 Annemarie Schimmel

الكاتب في سطور

- الدكتور نديم بن محمد عطا الله بن حسن إلياس
«المعروف بـ: د. نديم عطا إلياس»
- ولد بمكة المكرمة عام ١٣٦٥هجرية «١٩٤٥م» ونشأ بها .
- تلقى تعليمه الابتدائي وجزءاً من المتوسط بالقاهرة ثم أنهى دراسته المتوسطة والثانوية بمكة المكرمة عام ١٣٨٤هجرية «١٩٦٤م».
- قدم إلى ألمانيا عام ١٩٦٤م لدراسة الطب وتخرج بامتياز من جامعة فرنكفورت عام ١٩٧٣م، وتخصص في أمراض النساء والولادة من باد زودن وكريفلد، وتخصص في الكشف على الخلايا السرطانية في آخن وكولون.
- بدأ تلقي العلوم الإسلامية بمكة المكرمة في علوم الحديث والفقه والتفسير والتوحيد، وتابع دراساته الإسلامية في ألمانيا.

- شارك في تأسيس عدد من الجمعيات والمنظمات الإسلامية في أوروبا وفي إدارتها، وكان رئيساً لاتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا لمدة أربع سنوات متوالية.
- عضو مجلس إدارة المركز الإسلامي بآخن «مسجد بلال» والمتحدث الرسمي باسمه.
- رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا الذي يضم عدة مئات من المساجد والاتحادات والروابط، والذي يعتبر أكبر قاعدة تمثيل للمسلمين في ألمانيا لدى الأوساط الرسمية والصحفية والشعبية.
- يشارك في تحرير عدد من المجلات الإسلامية العربية والألمانية، ومحاضر في المؤتمرات والندوات الإسلامية.
- محاضر في عدد من مراكز البحوث والدراسات الألمانية والجامعات الشعبية، وعضو في عدد من لجان الحوار الديني، والسلام، ومستقبل القدس، والأقليات.
- دعي مؤخراً مستشاراً في البرلمان الألماني لتهيئة القانون المتعلق بقضية موت الآدمي ونقل الأعضاء، وقام بتمثيل المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا في اللقاء الأخير مع رئيس الجمهورية الألمانية رومان هرتسوج.